مجموعة قصصية

ما لم تدوّنه أيدينا

تأليف مجموعة من المبدعين العرب

ضمن فعاليات الموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة 2022م

حكياتنا

الموسم الثاني - دورة 2022

مَا لَمْ تُدَوِّنْهُ أَيْدِينَا

تأليف مجموعة من المبدعين العرب

ضمن فعاليات الموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة 2022م

حكياتنا

جميع الحقوق محفوظة
مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة

ما لم تدوّنه أيدينا

اخترنا -من بعد إذنكم- لهذه المجموعة القصصية عنوان "ما لم تدوَّنه أيدينا!" ليكون مستوحىً من عنوان القصة التي نالت أعلى نقاط تقييم خلال فعاليات هذا الموسم...

"ما لم تدِّونه أيدينا!" بل دوَّنته أرواحنا...

هي تحية تقدير وإكبار لكل الحروف والكلمات والمشاريع غير المكتملة والتي ظلت حبيسة عقولنا وشكلت لنا بقصد أو من غير قصد درجات السلم الذي أوصلنا إلى هذا المستوى من الإبداع الإنساني والأدبي.

فريق حكياتنا

حكياتنا

حياتنا هي حكياتنا

1. ما هي مبادرة "حكياتنا" للقصة القصيرة؟

مبادرة حكياتنا هي مبادرة أدبية ثقافية شبابية تطوعية أطلقها مجموعة من الشبان العرب المهتمين بتحسين الحالة الأدبية والثقافية في الساحة العربية ورفدها بإبداعات ودماء جديدة قادرة على إنعاش الميدان الثقافي والأدبي العربي بشكل عام وتعزيز المخزون الأدبي الذي يتناول فن القصة القصيرة بشكل خاص.

الرؤية:

توفير الدعم الأدبي والتحفير المناسب للكتاب العرب عبر إطلاق فعاليات ثقافية تقييمية متنوعة بشكل سنوي تختص بفن القصة القصيرة.

الرسالة:

جعل الكاتب العربي محور الاهتمام والتفاعل معه من أجل تطوير مهاراته وشخصيته الأدبية وتوظيفها أحسن توظيف في سبيل الوصول إلى نقطة الذروة في مسيرة إبداعه الخاصة.

أهدافنا:

1. إحداث ثورة حقيقية في عالم تنظيم المبادرات الأدبية على صعيد الساحة العربية ومتابعة المشاركين والاهتمام بهم ودعمهم وتزويدهم بأهم التقنيات والأدوات التي تمكّنهم من كتابة قصة قصيرة متماسكة.
2. نشر القيم الإيجابية بين أفراد المجتمعات العربية، وإثراء الفضاء العربي بنصوص إبداعية تحمل هم الواقع الراهن.
3. استثمار الإبداعات الثقافية وتوجيهها نحو التنمية المعرفية وتطوير الذات.
4. تسليط الضوء على أهمية اللغة العربية وعراقتها والحث على الاعتناء بها والتمسك بنواصيها.

2. الاستراتيجية التي اتبعتها مبادرة حكياتنا في فترة التأسيس:

لعدة أسباب وظروف... رسمت المبادرة خطتها الاستراتيجية في مرحلة التأسيس بالاعتماد على رأسِ المال البشري أكثر منه رأس المال المادي، وتمحورت استراتيجياتها في:

1. التشاركية الثقافية لإحداث أثر كبير في تنفيذ الأنشطة الثقافية المتنوعة في ميدان القصة القصيرة.
2. بناء فريق تحكيم متمكن من ذوي الاختصاص ومراعاة استقطاب المحكمين من مختلف الجنسيات والثقافات.
3. تموضع افتراضي يعتمد على السمعة والتشبيك والعلاقات الثقافية.
4. تركيز الاهتمام على النجاح والإنجاز وإحداث الأثر (أثر وفائدة حقيقة للمشاركين) بهدف بناء سمعة.
5. تطلبت هذه الاستراتيجية قدرة عالية على المرونة والتحكم، والصبر والإرادة لما تشكله من تحديات.
6. لم يكن الخيار صناعة الاسم عن طريق المادة، وإنما عن طريق النجاح والإبداع، وحتى لم يكن للمادة أي دور في جوائز المبادرة وإنما الثقافة والعلم والتوجيه والرعاية.

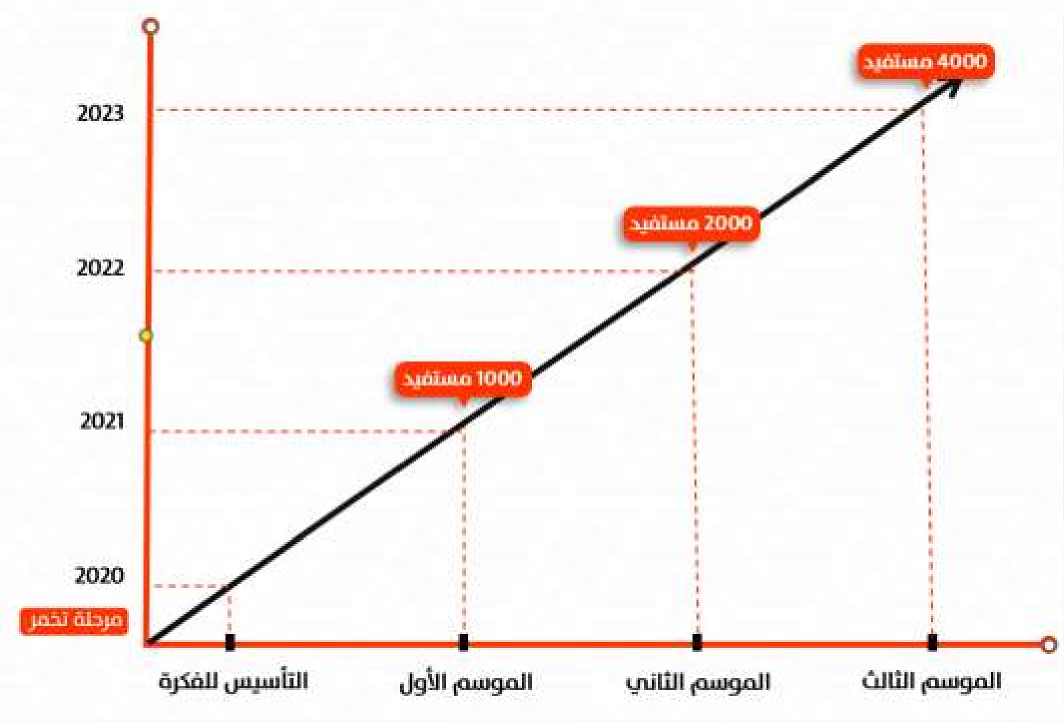

Growth plan during the first three years of the initiative - /01/ مرفق رقم
خطة النمو خلال الثلاثة سنوات الأولى من عمر المبادرة

3. الأدوات التي تم استخدامها لتحقيق هذه الاستراتيجية:

1. وضع مؤشرات أداء قابلة للقياس ومتابعة سير الخطة الاستراتيجية.
2. توزيع الأدوار والمهام وفق مسميات وظيفية واضحة على كافة أعضاء الفريق.
3. وضع خطة تسويق تستهدف التشبيك مع شريحة كبيرة من الفعاليات وإعداد حملات إعلانية فعالة.
4. التركيز على الأثر الذي يمكن أن تحدثه مبادرتنا على صعيد سد الفجوة الحاصلة والنقص الكبير للمراجع الأدبية التي تناولت فن القصة القصيرة كجنس فريد من نوعه حاله كحال الشعر والرواية في عالمنا العربي.
5. تقديم الكثير من الخدمات الثقافية المتميزة **وبشكل مجاني بالكامل** للراغبين بتعزيز حالتهم الإبداعية ومسيرتهم الأدبية الخاصة.

4. التموضع الأمثل:

لم يكن للمبادرة أن تتموضع في بيئة غير مستقرة، لذلك وجدت في المساحات الافتراضية متنفسها ومنطلق أنشطتها وإبداعها الخاص، وقد كان لثقافة العمل عن بعد لدى كافة أعضاءها أبرز الأثر في أن تشكل فريقاً قل نظيره اليوم، قد تبعدنا عن بعضنا آلاف الأميال، ولكن يقربنا الشغف على تحقيق الفائدة والنفع الحقيقي للساحة الثقافية التي تعاني من النمطية والغرق شيئاً فشيئاً في مستنقع التجارة والاستهلاك.

اليوم وبعد سنتين تجاوزت المبادرة مرحلة التأسيس بتموضع استراتيجي يتيح لها حالياً الانطلاق بأمان بعد تقبل عربي (وغير عربي نسبياً) وثقافي واسع لها، فقد كونت شعبية ليست بالسهلة في صميم ووجدان الكتاب والنقاد والفاعلين الثقافيين وكل المهتمين بإنعاش الإبداعات العربية، ولا أجمل من ردود الأفعال التي تصلنا من بعض الكتاب الذين حركنا فيهم اللهفة للقلم بعد انقطاع وغياب مؤسف وطويل.

5. أنشطة المبادرة خلال ما نطلق عليه اصطلاحاً "الموسم الواحد":

يتم من خلال المبادرة تنفيذ مجموعة من الأنشطة، تبدأ بالترتيب من:

النشاط	المدة	الشريحة المستهدفة	النطاق الجغرافي	هدف النشاط	التأثير بالأرقام
1. التخطيط وتصميم المواد المخطط تقديمها للمستفيدين والتي تتناول أساسيات كتابة قصة قصيرة متماسكة	3 أشهر	الكتاب والأدباء العرب الهواة والمحترفين	المنطقة العربية ودول المهجر	هدف هذه المواد أن تكون كرافد لعملية توظيف إبداع الشباب في تأسيس بنية قصة قصيرة متماسكة مكتملة العناصر وسليمة السرد.	2000 فرد قابل للزيادة كمشتركين ومهتمين ومتابعين
2. فتح باب استقبال المشاركات (القصص القصيرة) والإعلان عن الموسم من المبادرة بشكل رسمي عبر وسائل التواصل.	1 شهر	الكتاب والأدباء العرب الهواة والمحترفين	المنطقة العربية ودول المهجر	يعتبر أول نشاط وأول مرحلة في الموسم هدفها استقبال المشاركات وعرضها على لجنة تقييم مصغرة للبت في قبولها ضمن فعاليات المبادرة من عدمه.	2000 فرد قابل للزيادة كمشتركين ومهتمين ومتابعين
3. إصدار بطاقات قبول مشاركة معتمدة للقصص المقبولة ومراسلة أصحابها لإبلاغهم رسمياً بالقبول بالمشاركة في الموسم.	1 شهر	المتقدمين للمشاركة في المبادرة	المنطقة العربية ودول المهجر	يعتبر من أهم النشاطات وأكثرها تعبيراً عن هوية المبادرة، تستهدف تعزيز جو المنافسة الشريفة وتحفيز المزيد من المبدعين على المشاركة والاستفادة من امتيازات المبادرة.	100 فرد كحد أقصى.
4. تصميم مواد تثقيفية إثرائية (إنفوجرافيك، اقتباسات، ملصقات، تصاميم جرافيك) وتحفيزية وتسويقية.	4 أشهر	الكتاب والأدباء العرب الهواة والمحترفين	المنطقة العربية ودول المهجر	التثقيف الأدبي بالدرجة الأولى وإثراء الفضاء المعرفي الأدبي والساحة العربية بمزيد من المواد والمعلومات.	2000 فرد قابل للزيادة كمشتركين ومهتمين ومتابعين
5. كتابة مقالات أكاديمية حول ما يتم ملاحظته في قصص المشاركين بنظرة عامة	4 أشهر	الكتاب والأدباء العرب الهواة والمحترفين	المنطقة العربية ودول المهجر	التوسع في الشرح بشكل عملي حول أساسيات كتابة القصة القصيرة وتعريف الكاتب المبتدئ بعناصرها الأساسية والضرورية بأسلوب علمي جذاب، وأيضاً التركيز على فن القصة القصيرة باعتباره جنساً أدبياً فقيراً من حيث المراجع النظرية والأدبية التي تناولته وقعدت أساسياته.	2000 فرد قابل للزيادة كمشتركين ومهتمين ومتابعين
6. إغلاق باب استقبال القصص القصيرة وتصدير الأعمال المقبولة إلى لجنة تقييم الأعمال النهائية المختصة.	2 أشهر + 1 شهر قابل للتمديد	المتقدمين للمشاركة في المبادرة	المنطقة العربية ودول المهجر	الهدف من هذا النشاط إعلان بدء مرحلة التقييم النهائي وبدء لجنة التقييم النهائي المكونة من 16 أكاديمياً وناقداً وباحثاً علمياً لأعمالها في تقييم جميع المشاركات الواردة في المبادرة تقييماً نقدياً مثرياً وأكاديمياً.	100 فرد كحد أقصى.
7. إنشاء قاعدة بيانات دقيقة لتقييمات اللجنة النهائية.	3 أشهر	المتقدمين للمشاركة في المبادرة	المنطقة العربية ودول المهجر	تفريغ النقاط الممنوحة من قبل لجنة التقييم النهائي للأعمال المشاركة وتوحيدها على قاعدة بيانات دقيقة وتفاعلية تمهيداً لنشاط إصدار النتائج.	100 فرد كحد أقصى.
8. إصدار النتائج وشهادات التكريم للقصص العشرون الأوائل.	10 أيام	المتقدمين للمشاركة في المبادرة	المنطقة العربية ودول المهجر	فرز مراتب القصص المشاركة وفق النقاط الممنوحة من قبل لجنة التقييم النهائي وإصدار النتائج ونشرها على وسائل التواصل الرسمية الخاصة بالمبادرة وتكريم الفائزين، بالإضافة لإرسال النتائج رسمياً لكل مشارك عبر البريد الإلكتروني.	100 فرد كحد أقصى.
9. تصميم الكتيبات النقدية.	1 شهر	المتقدمين للمشاركة في المبادرة	المنطقة العربية ودول المهجر	منح كل مشارك كتيب نقدي يحتوي نتيجته النهائية بالإضافة لآراء أعضاء لجنة التقييم النهائي النقدية، ونقاط القوة والضعف في العمل المقدم وإرسالها له عبر البريد الإلكتروني رسمياً.	2000 فرد من المشتركين والمتابعين على حد سواء.
10. تصميم المجموعة القصصية	2 أشهر	الكتاب والأدباء العرب الهواة والمحترفين	المنطقة العربية ودول المهجر	تصميم كتاب مجموعة قصصية موحد يحوي العشرين قصة الأوائل الفائزة بالمبادرة ونشره رسمياً عبر وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بالمبادرة بشكل إلكتروني ومجاني بالكامل لتحقيق أكبر استفادة.	2000 فرد من المشتركين والمتابعين على حد سواء.

6. إصدارات مبادرة حكياتنا الإلكترونية حتى اللحظة:

تم تصميم مجموعة من الإصدارات المتميزة المجانية خلال فعاليات المبادرة لتسد الفجوة الحاصلة في المكتبة العربية عن فن القصة القصيرة، ولعل أهمها:

مرفق رقم /02/ – كيف نكتب قصة قصيرة متماسكة؟
https://bit.ly/3Btip1J

مرفق رقم /03/ – الدليل الإرشادي للجان تحكيم مبادرة حكياتنا
https://bit.ly/3jkbQnL

مرفق رقم /04/ – آليات العنونة؟
https://bit.ly/3ar7SZh

مرفق رقم /05/ – الكتيبات النقدية
https://bit.ly/3zfHIS9

7. لجنة تحكيم الموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة 2022م:

يشكلون بمجموعهم ما يعرف بلجنة التقييم النهائي والتي تنحصر مهامها في تقييم الأعمال المشاركة وفق ستة معايير معتمدة:

تبدأ بتكامل عناصر القصة وتسلسل أحداثها ضمن حبكة مضبوطة، و أصالة الفكرة والإبداع فيها، مروراً على قوة الأسلوب ومتانته، و سلامة اللغة والتراكيب، انتهاءً بجمال الصور البيانية والبلاغية، و صدق العاطفة. وتكون من مهامهم أيضاً إبداء النقد الذي يرونه مناسباً من وجهات نظرهم المختلفة.

وقد أبدى الأساتذة الموقرون أعضاء اللجنة –مشكورين– أعلى درجات الجدية والتفاعل مع كافة أنشطة المبادرة وتقديم أفكار إبداعية واقتراحات مبتكرة لضمان سير المبادرة نحو الأمام، وأيضاً ساهموا بشكل كبير في إعداد بعض الكتيبات الإرشادية الخاصة بالمبادرة مثل كتيب "آليات العنونة"، وبالتأكيد قد نشطوا بشكل فاعل في مراجعة ونقد الأعمال المشاركة وتسليط الضوء على نقاط القوة والضعف فيها بكل أكاديمية وخبرة.

وقد تم تكوين هذه اللجنة من مجموعة من الجنسيات العربية المختلفة بما يضمن تنوع الثقافات والآراء وتكوين نسيج محكم البناء لعملية التقييم النهائي، وتتكون من الأساتذة الأكارم:

01
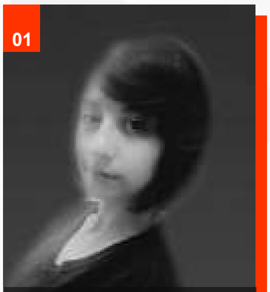
أ. علا الجبر ناقدة سورية

02

أ. فاضل قباني ناقد مصري

03
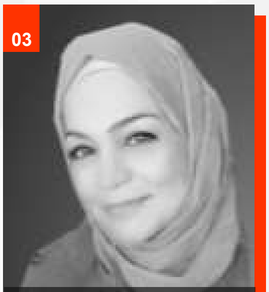
أ. سمر محمد عيد ناقدة سورية

04

أ. زهير بوعزاوي قاص مغربي

05

أ. مريم بغييغ ناقدة جزائرية

06

د. سمير كتاني ناقد فلسطيني

07

أ. هبة البدهلي قاصّة مصرية

08
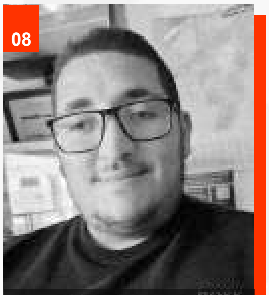
أ. محمد اتسماعيل قاص مغربي

09

أ. صديق الرضي قاص سوداني

10

أ. إبراهيم فوزي أكاديمي مصري

11

أ. نوادر عبدالله قاصة سودانية

12

أ. ريان بوتيوتة قاصة جزائرية

13

أ. أميرة شابي ناقدة جزائرية

14

أ. محمد البوعبيدي ناقد مغربي

15

أ. عائشة بناني ناقدة مغربية

16
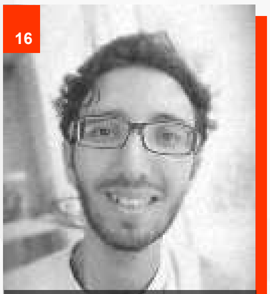
عمار محمد سويدان مراجع سوري

8. نتائج الموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة 2022م:

بعد انتهاء مرحلة التقييم النهائي، تم تصدير النقاط الممنوحة من قبل لجنة التقييم إلى قاعدة بيانات موحدة، وتم تصفيتها وحسابها ليتم الحصول على الترتيب الصحيح للقصص المشاركة:

حكياتنا

نتائج الموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة

يسعدنا أن نعلن نتائج الموسم الثاني – 2022م من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة
بعد عملية فرز وحساب تقييمات لجنة التقييم النهائي

01 ما لم تدونه ريشة الذهبي
مهند الكريلي - العراق

02 أيحلق طائر بلا أجنحة
رقية كبالي - سوريا

03 البزل القناعيس
عبدالمعين فرفوم - ليبيا

04 ما لا يجيء
فيصل عمري - السعودية

05 الأربعاء الكئيب
أماني اسكندراني - سوريا

06 جولة الذكريات
رويدة عبدالله - العراق

07 غرنيكا
نسرين خليل - مصر

08 الجريمة الكاملة: حرب الوجود
محمد عبدالله كيلو - السودان

09 جلسات ما بعد الثانية صباحاً
بيلر طابي - مصر

10 أنا هنا
علي علّان - سوريا

11 محراب الشيطان
ياسمينا العايب - الجزائر

12 ملائكة النار
محمد رياض كمال - مصر

13 انزع دثاري
رنا العسلي - سوريا

14 غريب في غرفتي
محمد محمد جروس - مصر

15 الطريق إلى القبة
إيمان أبو نعمة - فلسطين

16 الموظف والتهمة
محمد واحي - المغرب

17 شروق... إلى روحها
عادل الجمال - مصر

18 تخبّط
هشام أجران - المغرب

19 فقدان الكينونة (التيه)
إبراهيم السهلي - المغرب

20 يوم الصلاة
أسامة بوعنايي - المغرب

إصدار النتائج

مرفق رقم /06/ – النتيجة النهائية لفعاليات مبادرة حكياتنا في الموسم الثاني 2022م

9. المجموعة القصصية للموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة 2022م:

ختاماً وقبل أن نتركعكم مع المجموعة القصصية لهذا الموسم، نود أن نعبِّر عن شكرنا الجزيل والنابع من الأعماق لكل من شارك، دعم أو حتى ساندنا بكلمة.

نرجو أن يكون هذا الموسم من المبادرة قد حقق أو أثر ولو بشكل يسير على مدى إبداعكم وساهم في رفد تطور أقلامكم، وتحفيز طاقاتكم المكتنزة – والتي من واقع مشاهداتنا هي طاقات هائلة وواعدة.

"لا تتوقفوا عن الكتابة"

هذا كل ما نستطيع أن نسديه كنصيحة أخيرة، ونرجو أن تبقى في أذهانكم وأن لا تتوقفوا عن العمل في تحقيق مكانتكم التي تستحقونها ككتّاب وقصاص محترفين في بيئة وساحة ثقافية عربية هي أحوج ما تكون لدفق الدماء الجديدة.

سنأخذ حالياً استراحة قصيرة ونعود لنسمع آخر أخباركم وإبداعاتكم وقراءة تفاصيل تطوركم الأدبي، ولقد تكون لدينا شبه يقين، بأن **أقلامكم بعد هذه التجربة لن تكون كقبلها**، قد سعدنا حقاً بهذه الرحلة معكم، ونفتخر بها كما نفتخر بكم...

تفضلوا بقبول تحيات كادر المبادرة وسلاماته

دمتم في حفظ الرحمن ورعايته...

عمار محمد سويدان

المشرف العام

مَا لَمْ تُدَوِّنْهُ أَيْدِينَا

تأليف مجموعة من المبدعين العرب

ضمن فعاليات الموسم الثاني من مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة 2022م

حكياتنا

جميع الحقوق محفوظة
مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة

الفهرس

مالم تدونه ريشة الذهبي 17
أيحلِّق طائر دون أجنحة؟! 26
البزل القناعيس 40
ما لا يجيء 48
الأربعاء الكئيب 54
جولة الذكريات 60
غرنيكا 65
الجريمة الكاملة: حرب الوجود 70
جلسات ما بعد الثانية صباحاً 80
أنا هنا 99
محراب الشيطان 105
ملائكة النار 116
انزع دثاري 129
غريب في غرفتي 138
الطريق إلى القبة 144
الموظف والتهمة 150
شروق... إلى روحها 160
تخبُّط 165
فقدان الكينونة (التيه) 173
يوم الصَّلاة 178
القابع خلف الأحلام 185

مالم تدونه ريشة الذهبي

مهند التكريتي – العراق

لم يعد هسيس الوقت يربك حصان الذاكرة ، فالمسافة التي قطعها في مشواره العصي عن التشخيص ، تنطوي على إرث كبريتي موغل بالتشظي

– ما أبشع أن يتغير كل شيء هكذا ..!

قبل أسابيع كنت محتميا خلف متراس فراشي الجاف متأملا الاستيقاظ على صوت أذان مؤذن الحرم المكي ، والصلاة عند استار الكعبة ونحن نستقبل أشعة فجر قادم ، إلا أن كابوساً مرعباً فكك فتيل حلمي ، وجعلني أغادر إيقاعات أنفاس لياليّ الهانئة على حين غرة .. اللعنة على من أشار لي بحفظ مالي عند ذلك الشيخ ، وما قد جرته عليّ من ويلات

رفع رأسه إلى السماء مبهوتاً ، غاضباً .. كانت سحابات سود تتوالد وترعى بهدوء .

– أ..خـ..تـ....ا..ه .. !

انتفض بشـدة .. الجن تتنزه في الليالي المتربة عند وادي برهوت .. هكذا قيل له .. ذكريات مخيفة تتواثب لتنقض على ما تبقى من جسده المتعب.. كان يبكي كلما تذكر ما سمعه من تحذير مؤذن المسجد الحرام ، وهو يحثه على عدم السفر إلى هذا الوادي المحرّم .. ولا يدري كيف انتقل سمّ تلك الذكرى من مرحلة لقائه به حتى هذه اللحظة.

انتفض لحركة لا يعلم مصدرها إلا أنه أحس بدنو عدو متربص كالموت يتجه نحوه .

قبل عدّة أسـابيع كان قد اسـتقبل بوابة البيت العتيق ؛ فأخبروه بأنه سـيسـعد لبقية أيامه ؛ كون الموضـع الذي دخل بجواره يقع بجوار الركن اليماني ، مما حفزه للاسـتغراق في رحلته التعبدية وتأمين ماله عند ذلك الشيخ الملتحي ،بفروته المزركشة.

- اللعنة على الأقدار ، وما تجره علينا من ويلات .. أ لم تجد غيري كي تصـطاد فرحته بسـنارتها المزعجة ، وتحيل موائد الفرح المؤجل لديّ إلى مأدبة للعزاء ؟

.. يا لحظك العاثر يا حسـن ، لم تفترش يوماً وسـادة الفرح إلا وداهمتها دموع الكوابيس ، فما شـأنك و شـأن تلك النصـيحة بوجود من يسـتغلون حجاج البيت الكريم ، وذهابك إلى عرين ذلك الشيخ وتأمينه مالك.

- يا...أ..خـ..تا ..ه..!

لم يسـتطع أن يرفع رأسـه صـوب السـماء مرة أخرى ، وبخه صـاحب القافلة على تأمينه المال عند ذلك الشيخ ، الذي لم يسعفه عمره لإعادة ماله إليه .

- .. ـا..محيـ..ـني .. يا...أ..خـ..تا ..ه..!

أكنت تظنّ وأنت تسمع نصيحة إمام المسجد ،بوجوب ذهابك إلى بئر زمزم ومناداتك لروح الشيخ ؛أنه سـيرد عليك ، ويرشـدك إلى مكان مالك .. يا لبسـاطة ما مثلته تلك اللحظة في جمجمتك البليدة ؟

- سا..محيـ..ـني .. يا...أ..خـ..تا ..ه..!

بعض بقايا ما تلفظ به ابن الشـــيخ ووريثه كـان عصــيا على الفهـم ، حتى وأنا أتذكر بعضـــا من مفرداته مع اخوته وهم يتنابزون حولي ونحن في منزلهم الواقع في الضـاحية اليســرى من أم القرى .

- جــو..ك.. سا..محيـــنـي .. يا..أ..خـــتا ..ه..!..!

وجه صــاحب رحلته إلى هذا الوادي المخيف كان يرمقه بوجع مســترســل ، مدفون بلهاث قافية موؤدة ... كاد أن يموت وهو يضع أنفاسه فوق رقبة فرسه الجامحة ؟

- أرجوك سامحيني يا أختاه !

الذبابة التي تجري في عروقه جعلته يدرك أنه سيسحق تماماً تحت كف القدر ، إذا هو لم يتحرك ! مخالفته لأوامر والدته وهي تنهره ، وتأمره بالابتعاد عن التصديق واحلال الثقة بكل شخص ملتحٍ .. شنيعة جداً

تحركـت خطواته المعقوفـة باتجـاه إحـدى حجـارات الوادي الملعون ، على يســـار فتحـة عميقـة موحشـــة مترامية الأطراف .. توقفت الحياة في داخله فجأة .. لا يدري كـم من الوقت مرّ قبل أن تتدفق الدماء في عروقه كسيل هادر لتهدم سد الخوار من داخله.

تراجع قليلاً إلى الوراء .. اتكأ على بقايا حجارة نابتة كقرن شـيطان مخيف على يسـاره ، نظر باتجاه قطعة حجر كانت قد أعثرته وأدمت كاحله الأيســر حتى جعلته يهدئ من خطوه مســتســلماً لعجلات صمته اللاهث .

قطّب حاجبيه ... غير معقول .. وصلت إلى البئر الملعون .. بعد اجتيازي لصحراء حضرموت .

أحس بشــيء يوهنه عن الوقوف ، إلا أن إرادة المفاجأة أذهلته وأمرته أن ينهض على الرغم من وطأة ما يحس به من الآم ومشــاعر متضــاربة .. يتقدم صــوب فتحة البئر .. يتأرجح ماشــيا ً، حتى يتمكن من القبض على قطعة من حجارة مكتوبة بلغة غريبة [1]، تأملها بحذر ، ثم أخذ قطعة أخرى من بقاياها .

- ما هذا ؟ هل هذه كلمات منقوشــة حولها أم ماذا ؟ .. إنها كلمات فعلاً ً منقوشــة بطريقة لا يفهمها الاّ أهل ذلك الزمن .. ولكن ماذا جاء فيها ما هذا الكلام ..؟

مسح على ناصيته وأغمض عينيه قليلا ً، ثم فتحهما بهدوء ، حاول أن يسترجع بعضا ً من أبجديات ما كان يرصــفه في عقله ، ليحاول أن يفكك جزءا ً من خيوط هذه الأحجية الغريبة ، ولكنه لم يستطع .

فتح فمه قليلا ً ليتقيأ جزءاً من بخار عقله الذي بات يغلي لعدم قابليته على تفكيك شــفرات هذه الكلمات الغريبة .

حاول أن يتراجع قليلا لولا أن أصــواتا ً أطلقتها حجارته الملقاة بين قدميه باتجاه فوهة البئر ، قد دهمت مســامعه .. لم يكن صــوت ارتطامها بداخله،بل كان صــوت آخر ، هل يعقل أن تكون معاقرته للخمر أثناء فترة شبابه قد سلخت عنه الحكمة حتى تحول إلى إنسان لا يفرق بين صوت

الارتطام والتأوه ، دس يده بين طيات عمامته علّه ينزع من أذنيه بقايا ذلك الصــوت ، حاول أن يهز رأسه ليطفئ طنينه من قطرات الودق المتساقط على هضبته المنبعجة .. لم يفلح !

- آه يا الهي ما هذا الصوت الوافد على عذرية مسامعي ؟.. من أين يصدر ؟.. كفى أتركني ، أرجوك .. لم أعد أحتمل ..

حركاته الهيستيرية لم تمنع الصوت من مداهمة أذنيه بصفيره المدوي ، تتلاقح الأفكار في ذهنه وتتوالد هديراً ينتشر بسرعة عاتية ، ومحلقاً فوق سماوات تشظياته ، تحتويه غمامة من الأفكار الهستيرية تلقيه عند بقايا البئر المثلوم .

- ما .. ما هذا .. هل هذا هو مصدر الصوت ؟!.. يا إلهي أنه يؤلم؟

ملازمته لمسك صيوانا أذنيه لم يمنع الصوت من اختراقه.

- يا إلهي .. هل أنا أحلم مجدداً أم أنني لا أزال ملقى خارج بوصلة كابوسي الذي لا ينفك يلازمني منذ عزمت على السفر إلى هذا الوادي ، والبحث عن روح غريمي ، والتعرف على مكان مالي ؟ ، أنقذني يا إلهي ..

- هههه من ماذا تستجير يا فتى ، فأنا الذي تألم من آثار إلقائك لتلك الصخرة فوق بقايا أوصالي المترهلة ؟ !

- من .. من أنت ؟؟!

- أنا بقايا روح غريمك الذي تبحث عنه .. أ لم تميز صوتي بعد .. ؟!

[1] – الإمام محمدبن أحمدبن عثمان بن قايماز الذهبي (673 هـ – 748 هـ) صاحب كتاب الكبائر وكتاب وسير أعلام النبلاء وتأريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام و العبر في خبر من عبر وغيرها من المصنفات الشهيرة، ولد في كفر بطنا الواقعة قرب مدينة دمشق في 3 ربيع الآخر من (673) هـ ، وتوفي في دمشق في 3 ذي القعدة من 748 هـ .

- ما .. ماذا ، لا شك أنني أهذي .. يا لشماتة كل لحظاتي التي قضيتها في الصلاة عند البيت الحرام ، يا فرحة كل من سخر مني من زملاء رحلتي في هذه الحجة العجيبة .

- توقف عن هذيانك يا فتى وأسمع لما أقول فلم يتبق لك الكثير من الوقت .

- ماذا أسمع ؟ ، وهل بقي من أذني شيء ؟ بعد أن تمزقت شراشف طبلة أذني بصليل صوتك المتصحر

- أقول لك اسمع ، قبل أن يحس الملك دومة[2] بوجودك ، أو ساكنين هذا الوادي ، ويقومون بطمرك قبل أن ينكشف سر هذا المكان الملعون .

- وما هو الشيء الذي يخافون أن يكشف ، ألم تسمع ما يرد عن النبي من أخبار حوله ؟ أم كنت تظن بأن من قام بإرشادي إليه لم يحذرني منه أو يبصرني بما فيه ؟!

- ها .. وماذا قيل عنه ؟

- ماذا .. أو لست من سكان أم القرى ، والحاضرين مجالسها ، حتى عرفت بينهم بالصلاح والتقوى، أو هكذا خيل لهم ؟

- إخرس يا هذا ، وانتبه لما تتفوه به .. أنا فعلا رجل أتقي اللّه ، ولم آكل مالك ، بل دفنته في الموضع الجنوبي من داري ، بالقرب من النخلة المائلة ، ولم أدل عليه أحد من أولادي ، خشية أن أتهم فيه .

- ولماذا إذن أنت هنا محشور داخل هذه البئر المنتنة ، برفقة الهوام ، والملك دومة الموكل بقبض وحبس أرواح الكفار والمنافقين يا شيخ ؟

- آآآخ .. إنني هنا أقطع أناملي ندما في كل لحظة يا حسن ؟

– ولماذا يا عم ؟

– لأنني لم اســتمع لتحذير نبينا الكريم ؛ حينما قال : لا يدخل الجنة قاطع رحم . وما وردنا عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي (صـلى اللّه عليه وسـلم) : قال اللّه : أنا الرحمن ، وهي الرحم ، شـقـقت لها اسـما من اسـمي ، من وصـلها وصـلته ، ومن قطعها قطعته .وما وردنا عن عبد اللّه بن سـلام عن النبي (صـلى اللّه عليه وسـلم) : يا أيها الناس ، أفشـوا السـلام ، وأطعموا الطعام ، وصـلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . وما وردنا عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللّه عليه وسـلم) : من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر ، فليصـل رحمه .. إلخ وغيرها الكثير يا حسن .

– لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .. هل أستطيع أن أعمل لك شيئا يا عمّ .

– وهل تستطيع يا حسن .. أظنك لا تقدر .

– قل وإن شاء اللّه أستطيع أن أعمل عملا ، قد يبدلك مقاما خيرا من هذا المقام ، جزاءً على أمانتك وعفتك مع مالي .

– أريد منك أن تتشجع ، وتسرع بالهروب من هذا المكان ، قبل أن يحس بك قاطنوه ، وقبل أن يصيبك ما أصاب المرأة التي فقدت طفلها عندما تركته قريبا من فوهة هذا البئر وذهبت لترعى الغنم[3]، أو الرجل الذي فقد شـاة ، وحاول أن ينزل إليها بحبله ، فلم يسـتطع أن يخرج منه ، ولولا وجود أصحابه ، لما استطاعوا رفع شيء منه ، ودفنه ؛ بالشكل الذي يضمن لذويه وجود قبر ، يترحمون على من فيه ويستعيذون من وقوعهم في نفس مصيره الأليم[4] .

[2] – أورد الامام شمس الدين الذهبي في باب " هجر الأقارب وقطع الرحم " من كتابه الموسوم " الكبائر " الحكاية التالية: ((و حكي أن رجلاً من الأغنياء حج إلى بيت اللّه الحرام ، فلما وصل إلى مكة أودع من ماله ألف دينار عند رجل كان موسوماً بالأمانة و الصلاح إلى أن يقف بعرفات ، فلما وقف بعرفات و رجع إلى مكة وجد الرجل قد مات ، فسأل أهله عن ماله علم أنه لم يكن لهم به علم فأتى علماء مكة فأخبرهم بحاله و ماله فقالوا له : إذا كان نصف الليل فأت زمزم و انظر فيها ، و ناد يا فلان باسمه فإن كان من أهل الجنة فسيجيبك بأول مرة ، فمضى الرجل و نادى في زمزم فلم يجبه أحد ، فجاء إليهم و أخبرهم فقالوا : إنا للّه و إنا إليه راجعون نخشى أن يكون صاحبك من أهل النار ، اذهب إلى أرض

- وماذا بعد يا عم ؟

- وإن تسأل عن أختي اسراء ، الفقيرة المعدمة ، التي هجرتها ، فأصابني ما ترى من سوء العذاب ، وأن تحكي لها حكايتي ، عسى أن تسامحني فيبدلني الله مقاما غير هذا المقام المضحك المبكي .

- وهل لك حاجة بعد يا عم ؟

- نعم أريد أن تذهب إلى الحافظ ، أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي في كفر بطنا ، الواقعة بالقرب من دمشق ؛ كي يقوم بإزالة سيرتي من كتابه (سير أعلام النبلاء) الذي يعكف على إنجازه ويرصف حكايتي في كتابه الثاني (الكبائر)[5]؛ كي يتعظ بعدي من يطلع عليها ، ويصل رحمه ، قبل أن يصل إلى مقامي هذا ، ويرى ما أراه من كوابيس مرعبة .

- صفها لي يا عم ؟

- ماذا أصف لك .. شر مائها ونتانتها وخصوصاً حين يفد إلينا عاصٍ أو كافرٍ جديد ، أم المخلوقات التي تقطن فيها ، من جن محبوس ومخلوقات مخيفة ، أم النهاية المتوقعة لعالمكم ، أ لم يقل لك من بصرك بعواقب هذا المكان ؛ حديث نبينا (عليه الصلاة والسلام) حين قال : (لتقصُدَنَّكم نارٌ هي اليومَ خامدةٌ في وادٍ يُقالُ له : برْهوتُ ، يغشَى النَّاسَ فيها عذابٌ أليمٌ ، تأكلُ الأنفسَ والأموالَ ، تدورُ الدُّنيا كلَّها في ثمانيةِ أيَّامٍ تطيرُ كطيْرِ الرِّيحِ والسَّحابِ ، حرُّها باللَّيلِ أشدُّ من حرِّها بالنَّهارِ ، ولها بين السَّماءِ والأرضِ دويٌّ كدويِّ الرعدِ القاصفِ ، هي من رءوسِ الخلائقِ بالنَّهارِ أدنَى من العرشِ ، قلتُ : يا رسولَ اللهِ ! أسليمةٌ يومئذ على المؤمنين والمؤمناتِ ؟ قال : وأين

[2] – اليمن ففيها بئر يسمى برهوت يقال أنه على فم جهنم فانظر فيه بالليل ، و ناد يا فلان فإن كان من أهل النار فسيجيبك منها فمضى إلى اليمن و سأل عن البئر فدل عليها فأتاها بالليل و نظر فيها و نادى يا فلان ، فأجابه فقال : أين ذهبي ؟ قال دفنته في الموضع الفلاني من داري و لم ائتمن عليه ولدي ، فأتهم و احفر هناك تجده فقال له : ما الذي أنزلك هاهنا و كنا نظن بك الخير ؟ فقال : كان لي أخت فقيرة هجرتها و كنت لا أحنو عليها فعاقبني الله سبحانه بسببها و أنزلني الله هذه المنزلة)) ، قام القاص بتوظيفها كمبنى حكائي أولي في بناء نصه البنائي (الفني) من خلال اعادة استثماره وتوظيفه تراثيا ، مع اقتراح اسم لشخصية التاجر ، فضلا على محاولة اسطرة بعض مفاصل النص ، وبحسب الطريقة التي نظّر عنها الدكتور فرج ياسين في مطبوعه الموسوم "توظيف الأسطورة في القصة العراقية المعاصرة"

المؤمنون والمؤمناتِ يومئذٍ هم شرٌّ من الحمُرِ يتسافدون كما تسافَدُ البهائمُ ، وليس فيهم رجلٌ يقولُ : مَهْ مَهْ)

- لا لم يصلني يا عمّ

- أسرع يا بني .. لا الوقت ولا الزمان ملائم للكلام في هذا الموضوع .. اسرع وليحفظك اللّه من سهام قاطني هذا المكان ، ومن أنيابهم ، و لا تنسني ، فبيدك تحويل مصيري وبيدك الآن ابقائي أسيرا فيه .. أسرع .. أسرررع

- سأسرع يا عم .. لا تقلق .. سأسرع

حاول أن يوقظ عيون قدميه وهو يشرع بالركض فوق كتل الرمال الجاثمة تحت قدميه ..

أصداء صوت الشيخ وهو يحثه على الهروب، يخالط شبقه للعثور على جذاذات طريق الخلاص، تطالعه غمامة سوداء تتشكل في منتصف المسافة، يأمره الصوت بالإسراع، تقع عيناه على شيء يضيء في منتصف الأفق ، تحاول سيقان دخانية أن تلتف حوله وسط صرخات الصوت ، داعية إياه بالإسراع في الركض والوصول إلى وجهته ، ليوقفا نهم الشر المنبعث من تحت الرماد ، ويفلحا في تغيير مسار هذه الحكاية وتعديل مصيرهما المحتوم .

---

[3] – بئر برهوت، بئر تأريخية قديمة ، تقع في حضرموت اليمن ، في وادٍ عرفت بهذا الاسم ، يبلغ قطر فوهتها حوالي (25) متراً وعمقها بحدود الـ (250) متراً ، ووردت فيها العديد من الآثار و الأحاديث التي تتراوح بين الحسن والضعيف .

[4] – ورد أن هنالك قطعة من الحجر ، مكتوبة بالخط الحميري ، بالقرب من فوهة البئر التي يبلغ قطرها (2.5) مترا ، وفيها اسم البئر بتسميته المعروفة (بئر برهوت) وتعني (بئر وادي الجن),

[5] – الملك دومة : الملك الموكل بأرواح الكفار والمنافقين المحبوسة في هذا البئر ، بحسب المرويات المؤسطرة من قبل سكان اليمن .

[6] – من ضمن الحكايات المروية والمتداولة لدى سكان اليمن.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

أيحلِّق طائر دون أجنحة؟!

رقـيَّـة كـيَّـالي – سـوريا

فتحت الباب ببطء وإلى درجة معينة فهي تعرف متى تبدأ مفصلاته في الصرير، دلفت على أطراف أصابعها كانت غرفة النوم مظلمة إلا من حزمة من أشعة القمر المنسكبة على النافذة حيث يجلس بابا (عمران)، نظرت متأملة الناحية الجانبية لوجهه المنحني مدسوساً في كتاب وقد انزلقت نظارته إلى طرف أنفه، يده تحمل ذقنه وشعره الكستنائي قد هوشته رياح دغدغت أنفها بعاصفة عطر مثيره.

كانت سنا معجبة بِبابا (عمران) معجبة بتفاصيل مظهره المهيب وطوله الفارع، قسمات وجهه الوسيمة وتجاعيده التي ترتسم آثارها بإبرة ناعمة خفيفة تزيده وقارًا، منه تعلمَت أن تحكي بينما هو يسمع أن تحطَّ الأعباء بينما هو يزيلها، جعلها تحلم وتتمنى كَملكة مرفهة، فتغفو بقلبه وعلى قبلة منه ليوقظها أمان يتجلى بين أوتار صوته.

تسللت بملامحٍ متوجسة وطوقت عنقه بخفة وحنان، انتفض لحظة ليسمع صوتها وهي تضحك من فعله وضع علامة على الصفحة وترك الكتاب نائماً فوق المنضدة قرب إبريق الماء المندى ومزهرية الأقحوان، أراح ظهره قليلاً للوراء وأخذ يتمطى ويحرك رأسه يميناً ويساراً إلى أن نجحَ بتحرير رقبته من بين أناملها الصغيرتين، حملها إلى صدره ومشى بها إلى الغرفة المجاورة حيث كانت غرفتها... أرقدها على الفراش أمسك بوجهها الذي يوحي بعالم الطفولة بين كفيه وجلس يتأمل فتاته الصغيرة التي كبُرت بين يديه ونصب عينيه؛ زهرته قد أتمت عامها الثاني عشر..!

على كرسيه قرب سريرها جلس يراقب بصبر خصلات شعرها المتناثرة فوق جبينها، وجنتاها المتوردتان بنعومة، وبراءة عينيها التي تمنى لو أمكنه اصطياد نغمات الأمل منهما.

- إذاً...لمَ لم تنم صغيرتي إلى الآن؟!

- لم أستطع النوم يا أبي.. يقلقني شيء ما.. لا أعلم ماهيته!

ابتسم بدفء وبصوته الحاني راح يروي لها قصة الإيطالية (بيرينا ليجناني) وكيف حازت على لقب أفضل راقصات الباليه...بان الضحى من بين أضلع الظلام فألقت الشمس أشعتها على أسطح البيوت، لم تستيقظ فهي لم تنم بالفعل لكنها على الرغم من ذلك وبروح معنوية عالية جهزت الفطور ولم يتبقَ سوى خطوتها الأخيرة والتي لا تسمح بأيٍ يكن أن ينوب عنها في هذه المهمة؛ وهي إحضار الشاي وتفننها في صبه عن بُعد وبشكل منتظم من دون أن تعصيها قطرة واحدة وتنسكب، حملته بيد مسيطرة وأمسكت بمنشفة أسفل العنق حتى صارت الانحناءة اللطيفة لِبلبله تداعب فوهة الكوب رفعته إلى الأعلى مع إمالة خفيفة، وبرعشة قوية أصابت يدها لا شعورياً طاح الإبريق منزلقاً ومحدثاً ضجيجاً وبعثرة صاخبة في أنحاء الطاولة لم يكن ذلك ما أثار خوف عمران بقدر ما أفزعته ردة فعلها التي تجسدت بأن دفعت الكرسي أرضاً وناحت بغضب متمتمةً بكلمات غير مفهومة تختلط مع بكائِها وكأنه كان للإبريق ثأراً معها وانتقم، هدّأ من قلقها وطمأنها بطبيعة حدوث ذلك مع أرقى الأميرات وأمام أفخر الحضور، حاول مداراة الأمر وتنظيم المكان لجعله بأفضل حال قاطعاً وعوده برحلة صيد في نهاية الأسبوع وبعد وقت من الاسترضاء والتهدئة ارتدت ملابسها المدرسية وأعطت ظهرها لعمران:

– أبي أربط لي شعري.

أخذ يربط لها ذيل الحصان التسريحة الوحيدة التي يتقنها...! أقلّها إلى مدرستها مودعاً إياها بقبلة مرسَلة عن بُعد في الهواء الطلق... راقبت السماء وهي تظلم والظلال تغمر واجهات المنازل المجاورة انسابت بضع سحابات رمادية تشبه القنيط تستر وجه القمر مثل طرحة زفاف، ضوء واهن يومض في الشارع، صمت دائخ يحل على المدينة، يقفز حبل مثقل بالغسيل أمامها، مسحت نظرتها كل تلك الأشياء قبل أن ينمل وجهها وتحترق أناملها من البرد، تماشت دقات قلبها مع دقات الساعة، اشرأبّت بعنقها مراقبة الناصية في نهاية الشارع، تسلل إليها شعور غريب شعور يُشعل الحرج والجرح بها... فزعت لكيان أمها وراءها والذي أجثم على قلبها:

– بأي وجه تنتظرين والدك العزيز كيف تفعلين ذلك أيتها الحمقاء؟؟ لقد جعلتِ من نفسك فرجة.. كنت أقول لأبيك لا منفعة من إنجاب الإناث أمثالك لكنكِ أصريت أن تأتي بوقاحة على حياتي وتكوني وصمة عار تلهب جبيني إلى الآن ولا مجال لأن تُمحى!

كانت تراقب الكلمات وهي تنسكب من فمها كَشراب أسود غليظ وعلا صراخها وهبط مثل ساطور يضرب قطعة لحم بعنف:

– عموماً أنت مريضة... مريضة نفسياً أتعلمين!!

لم تقلها لها وإنما بصقتها عليها وكخنجر مسموم ألجمتها... خرجت زفرة منها وفقاعة من الجزع ملأت صدرها شعرت بأنها منزوعة من جذورها، مشردة من كل معاني الاحتواء هواجس

احتدمت بداخلها حتى خارت ركبتاها قبضت على قماش فستانها بقوة، شعرت بحرقة الدموع في زاوية عينيها.

صلصلة مفاتيح ووقع أقدام ثم صرير الباب وهو ينفتح ينظر عمران بصمت وهدوء يجول بنظراته نحو الأم مشيراً إلى خروجها من الغرفة، عينا الأم تضيق لتصبح أشبه بشق، ترميها بنظرة حادة وغاضبة تكاد أن تخترق جسدها الغض، تشيح بوجهها المنتفض عنها، يُصفع الباب ثم:

– هاه وأخيراً حضرت لقد استدعِيت اليوم من قبل المدرَسة... صفعت زميلتها بعنف لأنها أحدثت صوت طقطقة بالقلم ثم ضغطت على طرفيه إلى أن كسرته نصفين غير أن المعلمة أخبرتني بأن مستواها التعليمي متراجع جداً في مذاكراتها الأخيرة.. ألست أنت من أصريت على إنجابها وتعليمها! تحمل مسؤولية ذلك أيها الأب المثقف المثالي...

اختفى الصوت تدريجياً، غسل ضوء النهار السماء فقلب ظلمتها بياضاً، تململت الكومة وأخرجت أنيناً من تحت الغطاء، عيناها متغضنتان ومنتفختان في الضوء تدعكهما بكلتا يديها، رأسها كان يؤلمها وأشرعة عبوسها مازالت منشورة في ملامحها، سيقان الكرسي تُجر على الأرضية... بجانبها جلس عمران بعينين هادئتين نظرت إليه دون أن تنطق ونظر إليها بعتاب رقيق، صَبَا إليها وتناول يدها بين يديه، ابتسم ابتسامة متعبة وفاترة شد عليها حصار أحضانه حتى هدأت واستراحت أعصابها:

– سآتي اليوم بعد الظهيرة اصطحبك إلى المدرسة لديك موعد تدريبي أخبرتني به معلمتك لضمان نجاح رقصة الباليه الأخيرة على خشبة المسرح.

حفنة من الكلمات أشـــرقـت بها عينيها، أومأت برأســـها موافقة كعصـــفور فاجأه الربيع عندما انتصف النهار، وحيث مكان التدريب مدت ذراعيها وعانقت ذرات الهواء من حولها أغمضـت عيناها وسلمت روحها لصوت الموسيقى في أعماقها، وقوفاً على أطراف أصابع قدميها حيث اعتادت على ذلك تلقائياً بدأت تدور حول نفســـها بثبات و خفة محلقة بمرونة و ضـــاربة بعرض الحائط أحلامها الوردية... فجأة شـــعرت بفقدانها التوازن، جنحـت الأرض من تحتها اكفهر وجهها وتأرجحت الغرفة إلى الأمام و الخلف، وجوه تحدق بها أذناها تطنان وعيناها تندفعان من وجه إلى آخر، طبقة رقيقة من العرق تلتمع على جبينها ثم:

- أأنت والد الطفلة؟

أجاب بهلع:

- نعم أنا هو...

- أصـــيبت ابنتك بارتجاج بســـيط في دماغها أثر اصـــطدامها بالجدار، لوحظ أثناء فحص صـــورة الدماغ بوجود أشياء غير طبيعية في العقد القاعدية لدماغها.

كادت الصدمة تغشي بصره وشلُت تعابيره:

- ماذا تعني بأشياء غير طبيعية؟

- سيدي علينا أخذ عينه من الدم الذي يخصك أنت وزوجتكْ وتحليلها بشكل فوري لتظهر إجابة سؤالك بعد حوالي ساعتين من الآن.

أخذ الطبيب الموافقة من عمران على إعادته لتصوير الدماغ بالرنين المغناطيسي واستعان ببعض الفحوصات الأخرى بعدما ظهرت نتيجة تحليل الدم التي أتمت بمجهود من المحاولات وجولات من الشجار مع زوجته التي رأت بأن الطبيب يبالغ جداً بأمرها.

– سيدي تُظهر الصورة وجود تنكس بالعقد القاعدية وتشوهات بالمناطق الأخرى من الدماغ وذلك يعني أن ابنتك مصابة بداء هنتنغتون الوراثي وبحسب نتائج التحليل فالمورث الأساسي هو زوجتك.

– لكنها بلغت من العمر الثلاثين عاماً ولم تعاني من شيء طوال حياتها.

– غالباً تظهر الأعراض بين سن الأربعين والستين عامًا وإن ظهرت ما قبل العشرين فذلك يسمى بداء هنتنغتون الشبابي أعتذر عن قول ذلك حقًا… لكنه من واجبي أن أطلعك على المعلومات، تُقتل خلايا الدماغ العصبية تدريجياً بالتالي يتدهور الجزء الدماغي الذي يعمل على تنسيق وانسجام الحركات، تظهر أعراضه حالياً على شكل تشنجات أو رعشة بسيطة في الوجه أو اليدين، صعوبة في التفكير، قلق واكتئاب، تغيرات نفسية، حركات نفضية، صعوبة في التحدث أو البلع، انخفاض كبير في الأداء المدرسي… ابنتك يا سيدي في المرحلة المتوسطة من المرض ربما لم يتم الانتباه إلى الأعراض منذ البداية لاندماج الحركات اللاإرادية والغير الطبيعية مع الحركات الهادفة بحيث يصعب ملاحظتها… يمكنها التعايش مع هذا المرض لفترة تتراوح بين العشرة أو العشرون عاماً بعد ظهور الأعراض للمرة الأولى، لكن… يؤسفني إخبارك بأن مرضها سيتطور بشكل أسرع وأسوأ إلى أن تصبح مقيمة في الفراش…

وأنبّه حول إمكانية حدوث نوبات من الانفعال والتصرف دون تفكير كالانتحار... ويرجى أخذ الحرص بشأن الموضوع.

بدأت تفيق وتحاول تذكر ما حدث قبل لحظات الإغماء، حاولت فتح عينيها لكنها شعرت بثقل جفونها مع تنميل تام في أطرافها،بدأ الثقل يضيع تدريجياً وبمجهود استطاعت فتحهما لكن طبقة من الدموع حجبت رؤيتها، مرت ثوانٍ ثم بدأت الرؤية تظهر شيئاً فشيئاً، طنين مزعج في رأسها، وحرقة في حلقها، ثقل في لسانها، بدأ الإدراك المشوش يوضح لها صورة عمران جالساً بقربها على القرفصاء، رأته يبكي... شعرت ببحّة في حلقها، خرجت كلماتها كالفحيح وببطء اتضح في نطقها للحروف:

– آه يا بابي أنت تبكي بسببي... أنا فقط... لا أعلم لمَ فقدت صوابي.

علا وجهه الهم وامتقع، غص بنشيج مكتوم، ضغط زاويتي عينيه الداخليتين بإبهامه وسبابته، تعثرت حنجرته بأنياب كلمات مكدسة كادت أن تخرج من فمه مثل بخار أنفاس يوم بارد... لم ينبس بشيء سحب نفساً طويلاً وعميقاً وجمماً من الجمر تستعر داخله.

– أنت تبكي لأنني ابنة عاقة أليس كذلك !!... فشلت في الدراسة وحسن التصرف مع من حولي وها أنا أفشل الآن برقص الباليه...

ضغطت صدغيها بحركة عصبية.

– لم أستطع حل شيء من مذاكرات الفصل... لم أستطع فعلها! شيء ما تخبط هنا نسيت كل شيء يابابي نسيت كل شيء.

تتالت حركات يديها ضاربة رأسها بقوة كاسحة.

– أصوات ما تدور في رأسي منذ فترة أصوات مثل... رنين... أو صفير تغرز هنا وهنا.

وازدادت حركاتها سرعة حتى تعبت وانزلقت بوهن على حجرها شعرت بأطرافها تتشنج حاولت أن تشهق الهواء، لم تستطع الحروف تجاوز حلقها، علِقَت الكلمات في حنجرتها وكبلتها لا هي خرجت ولا هي سمحت للهواء بالمرور، شعرت بجسدها يزداد تشنجاً أمسكت بقوة رقبتها وكأن حبلاً من الخيش أحاط بها، لم تجرؤ على التنفس أو الرمش بعينها، رقدت تشهق مقوسة كما المنجل، خرج من حلقها صوت اختناق صاخب في حين أن قلب عمران سقط في ضلوعه، اتسعت عيناه وازدادت سرعة أنفاسه يلتفت يميناً وشمالاً بمحض جنون صارخ كالمسعور كما وكأنه وُضع في المكان الغلط.

بضع دقائق من الانتظار التي فرضها الطبيب عليه، انتهت الرجفة... أخذت تلهث وقد أغرقت الدموع وجهها، انتفخت أوداجه وضغط الخوف على صدره، ابتلع ريقه، تطلع إليها بنظرة جريحة ضغط بالمنديل على عينيه بعدما سال الدمع منهما منهمراً كالجمر على خديه وبيدان ترتجفان ضمها إلى صدره، تنفس الصعداء وصنع على وجهه الباهت الذي اعتصره الهم قناعاً من الابتسامة الشاحبة، أجلسها برفق إلى جانبه وقال بصوت بح من الغصة:

– لا تقولي هكذا يا بابا لا تقولي يا فلذة كبدي أنتِ، أنتِ ابنتي أنا... ابنتي ووحيدتي التي أهيم بها فخراً وأعيش حياتي لأجل عينيها، أنتِ أميرتي المدلّلة وحبيبة البابا التي من دونها لما استطعت اصطياد طير واحد...

أسدل يده على خدها الذي أراحته فوق صدره وتركت دموعها تتساقط على جلده الرقيق، قالت بصوت متهدج:

- دعنا نذهب إلى المنزل الآن يا بابي.

وتبعاً لرغبتها وإلحاحها، سمح الطبيب بإخراجها مع وجود رعاية طبية كاملة ومراقبة دائمة لحالتها الصحية وتطوراتها.

انسابت السحب تحت قمر شاحب وتلبدت السماء بالغيوم، بيدها اليسرى تشبثت وحاولت النهوض جالسة في الفراش، عقدت ساقيها وسحبت البطانية على حجرها، جلس أمامها مرتخياً في مقعده كصخرة ارتطمت بها أمواج البحر ومازالت تقاوم بضراوة، نظر باتساع وشرود، جفنيه مسدلين في طيات مجهدة، ملامح وجهه تنذر بركان عينيه وهالات سوداء قد تكونت تحتهما، أخبرته بأنها تريد الجلوس وحدها... وتفهَّم ذلك على الفور عندما سمع صوت طقطقة كعب يأتي من الخارج، جلست بكل إحباط... بدا البؤس على محياها، تضحك في لحظة وتبكي في لحظة، الألم أحكم قبضته على عقلها والحزن أسدل شباكه السوداء، ذرة ألم تفاقمت بها فلفحتها بلهيبٍ أحرق جمجمتها، تركزت عيناها عندما قاطع أفكارها صوت عمران:

- إذاً كنت تعلمينْ لذلك لم ترغبي بأخذ عينة من دمك.

- أعلم بماذا؟

- لم تنطلِ أكاذيبك عليّ يوماً ولن تنطلي وأنت تعرفين.

- لم أكن أعلم بذلك قبل الزواج.

– ولمَ لمْ تخبريني؟

– حاولت إخبارك بطريقة أو بِأخرى أنه لا يجب أن تأتي سنا على هذه الدنيا وأنت لم تفهم، حاولت نفيها من حياتي وابتعدت قدر الإمكان عن التعلق بها، لكنك أصريت على جعلها من أولوياتك.

– أنتِ فعلاً إنسانة لا تحب سوى نفسها أنانية وجاحدة، ما ذنبها الطفلة إن ورثت منك ذلك... أقسم أني لم أصبر على وجودك إلا كرامة لِسنا وكرامة لمشاعرها على الرغم من أن لا شيء يوحي إلى هذه اللحظة بأنك أمها لم تقدمي لها سوى مرض يلتهم دماغها في كل يوم ويقتلها... ولم تقدمي لي سوى الموت في كل لحظة يقترب بها أجلها... يا سيدة ابنتي ليست مريضة نفسياً ويا ليتها... ابنتي مريضة بداء ليس له علاج! داء ورّثتها إياه وهذا كل ما استطاعت جَنيَه منكِ...

قبض على ذراعها بقوة وسحبها إلى غرفة النوم، ثم استطرد بحديثه:

– من الآن فصاعداً سأنام هنا قرب غرفة سنا وأنت بغرفة المعيشة، عموماً استعدي غداً لإجراءات الطلاق...

تلاشى الصوت من أذنيها بعد آخر جملة قالها (هذا كل ما استطاعت جَنيَه منك) ابيضّ وجهها وراح يبيضّ أكثر فأكثر، قست ملامحها وشبكت حاجبيها، اصطكت أسنانها وارتجفت بقوة، دفنت رأسها تحت الوسادة وانتظرت انتهاء الرجفة، أسفل اللحاف ثنت ركبتيها التي دست بأسفلهما يديها، رقدت تنظر إلى غلالة من دخانٍ أسودٍ تحوم في السماء لم تستطع النوم

طويلاً؛ كانت تضـطرب، تبكي وتنتحب تهتاج بين السـاعة والأخرى وتركل البطاطين التي غطاها بها عمران في المرات الأربع أو الخمس التي دخل بها عليها، تجاوزت الساعة منتصف الليل أصوات تكتمها الجدران، غربان تنعق من فوق الأغصـان، صـراصـير الليل تسـقسـق، أوراق الخريف الجافة تحت الأقدام تنسـحق وطنين الذبابة يغرس كمثقاب في أذنيها، انفتحت عيناها على وسـعهما ثم انفتح فمها يرتعش... اشتدت أوتار رقبتها كالوتر وتصبب العرق من وجهها كالمطر... سمعت أبواباً تُفتح، ماء يطرطش في الحمام، زجاج يتهشّـم، سـمعت طقطقة مفصـلات عربة تُجر وخشـخشـة دواليبها الحديدية التي شـعرت بمعدنها ينغرس في عظامها، غاصـت في أحد صـدغيها أصوات صاخبة والْتَوَت داخل مخها ببطء كَسكين جزار، انغمر شعرها بالعرق وقطرات من الرطوبة انزلقت على حافة شـفتها العليا جففتها وحاولت تمالك أعصـابها وكبح جماح أفكارها لكن جلدها بدأ ينكمش وجبلاً من الهموم أجثم على صـدرها فكتم أنفاسـها، وجدت نفسها عارية أمام تيار جراحها.

بدأت الأفكار تتسـلسـل كشـريط فيلم في ذاكرتها... "حاولتُ نفيها من حياتي"، "مرض يلتهم دماغها" ، "يقتلها"، "هي مريضـة بداء ليس له علاج"، "لا يجب أن تأتي سـنا على هذه الدنيا"، "كل لحظة يقترب بها أجلها"، تشربت تلك الأفكار وأخذت الدموع تنساب من زاويتي عينيها، نظرت إلى يديها وأدركت قوة المصـيبة التي نزلت بها والإمكانات التي حُرمت منها وآمالها التي تحطمت، لم يعد هناك ما يجذبها للحياة، شـعرت بأنّ الغرفة نفذت من الهواء، نفذت من النور وأرادت لو تنفذ من الحياة، وضـعت قدمها الأولى على الأرض ثم أتبعتها بالأخرى ببطء كطفل تعلم

الوقوف لِتوه، كادت تعجز عن الحركة وكأن إسـمنتاً قد جف في كل مفصـل من مفصـلاتها، أحسـت بدرجة من التكلف أثناء ذلك كما لو أن أثقالاً قد ربُطت بسـاقيها المرتجفتين، تملكتها رغبة في الخلاص من جسـدها، من روحها، ومن كل ماحل بها... اتجهت بخطوات غير ثابتة نحو المطبخ، تناولت سـكيناً بيدها، خطَت خطواتها الأولى فتوقفت... هناك عند باب غرفة المعيشـة المجاورة تراءى أمامها وهمٌ لمقطع عالق بذهنها... يفتح بابا عمران ذراعيه فتمضـي إليه ثم تجري، يرفعها من تحت ذراعيها ويرمي بها عالياً، تتردد صدى كلماته بأذنيها:

– أتعلمين يا سـنا! مَن لم ترفعهم ذراع الأب عالياً لن يجرؤوا يوماً على التحليق حتى لسـقف الغرفة...

ابتسمت ابتسامة هتماء هياماً بغرفةٍ لطالما حافظت على ذكريات جميلة و احتوت أبيها وأغفته بأحضـان أركانها على مدار ما سـبق من أعوام، أخفت السـكين تحت بلوزتها متجهة إلى غرفتها بخطوات مترنحة، لكن شـيئاً ما أثار نظرها قبل أن تبلغ بابها... كانت مزهرية الأقحوان تلتمع تحت أثر ضـوء القمر الخافت الذي يطل على هيئة خطوط رفيعة من خلف خِصَاص نافذة غرفة أمها مما جعل الرؤية ممكنة نوعاً ما، بنظر مشـوش وتحت وطأة الظلام وجدت جسـد أمها ممتد تحت اللحاف، اقتربت تجر قدميها كثقلي سـجين، لمحت انعكاسـها الشـاحب في النافذة المظلمة، أعاصير سـوداء معتمة فارت بداخلها وأفكار شـيطانية اصطخبت بعقلها: "أصريت أن تأتي بوقاحة على حياتي"، "وصـمة عار تلهب جبيني" ، "أنت مريضـة نفسـياً أتعلمين!"، "لم تقدمي لها سوى مرض يلتهم دماغها"، "هذا كل ما استطاعت جنيه منك".

أمسكت بالمزهرية وأطاحت بها على رأس أمها لكنها أجفلت لحظة وتسمر جسدها... شعرت بتنميل في نصفها الأسفل، قفزت عيناها، من محجريهما واتسعت تدريجياً من دون أن تطرفا، ارتعد جسدها واضطربت أنفاسها، شهقت الهواء عبر أسنانها حينما بان وجه عمران أمامها، وجدت الدماء تُسال على جبهته حتى وصلت إلى عينيه الدامعتين... أخرج صوتاً مكتوماً وارتعش جسده لحظة ثم انتفض... خبتت حركته تماماً وعيناه شاخصة للأعلى... تصالبت ذراعاها غريزياً على صدرها الذي راح يعلو ويهبط:

– أبي... أبي أنظر إلى لمَ تنظر لسقف الغرفة هكذا أنظر لعيني ألستُ أنا حبيبة البابا هيا أفعل ذلك من أجلي، أفعل ذلك من أجل حبيبتك أبقَ بجانب سنا... لا... لا تترك المرض يصارعني يا أبي... لا تذهب.

راحت قبضتاها تضربان صدره لكنها أحست بجسده أصبح متخشباً بارداً وساكناً:

– لقد لقد ما... مات أبي.. مات أبي... لا ليس أنت... ليس أنت من يجب أن يموت لا... ليس أنت من عليه الرحيل يا أبي ألم تعدني برحلة صيد في نهاية الأسبوع؟ اليوم هو.. اليوم هو الخميس يا أبي... ولكن... ولكن يا أبي لم نُصِبْ الطيور اليوم وإنما أنتْ من أصبتْ...

انحبست أنفاسها وشعرت بقلبها يدق في حلقها:

– أصبتَ أنتْ... وكُسرت أجنحتي أنا... أتُراها تُخلق الأجنحة من جديد يا أبي!! أم أن لا طائر يعيش دون أجنحة!... أبي... لمَ أنت مصر على ألا تنظر لعيني! أتراني سيئة إلى الدرجة التي أستحق بها أن أحرم من نظرتك يا أبي! أتراني سيئة إلى هذا الحد!

بحركة ارتجافية تحسـسـت السـكين من تحت بلوزتها وجهت طرفها المدبب... ليخترق بعمق بطنها.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

البزل القناعيس

عبد المعين قرقوم – ليبيا

أذكرُ جيدًا ذاك اليوم الذي كانت فيه الريح نيْرجًا ونورْجًا، مُحمَّلةً بالأتربة والغبار، في شهور الصيف المحرقة، حمراء اللون، ميباسًا معجاجًا، لدرجة أنك لو وضعت مُشيرتك نُصْب عينيك مسافة مترٍ واحد ما اسْطَعت رؤيتها! كان هذا في كوَّة الملح "بنغازي"، تلك المدينة التي أناخ بها الشقاء وناء بكلكلهِ، حتى يُخَيَّل إلى زائرها بأن أهلها هم "**البائسون**" الذين كتب عنهم فيكتور هوغو روايته! بل الأنكى من ذلك تحوُّل قلب المدينة النابض إلى قَفْرٍ أكثر بؤسًا وأشد شظفًا عما كانت عليه. وأما عن منارتها التاريخية فحدِّث ولا حرج! أصبحت مهجورة البرج، مكسورة النوافذ، قد خبا نورها، وغاب بريقها، وتلاشى بهاؤها، وكأنها تشكو بثها وحزنها إلى اللّه، وترثي في كمدٍ رحيل برَكَة أهل القرآن عن المدينة؛ فمِن ربّاية الذائح لِعُقودٍ إلى دستُوبيا ليبيا بجدارة، ويا ألف خسارة!

باختصار، كان يومًا في طاعة اللّه، لا تستطيعُ فيه التنفس بصورة طبيعية وأنت ببيتك، فما بالك لو خرجت دقائق إلى الشارع! وفي خضمٍّ هذه السيهجة الترابية، التي لا تكون فيها متحمسًا للخروج، شاء القدر أن يهاتفني أحد الأخِلّاء طالبًا مني مرافقته في قضاء مصلحة خاصة، أخبرته أن ذلك من رابع المستحيلات في مثل هذه الأجواء، فردَّ قائلًا: "إنني قريب من منزلك والعاصفة تُحاصرني، أريد من يُسايرني ويؤنسني فحسب، فهل أنت لها؟"

رعاية لخاطرهِ وافقت على مضض، وما هي إلا دقائق معدودة حتى ركن سيارته أمام المنزل وانطلقنا مباشرة صوب المدينة، بالتحديد إلى شارع "العقيب" حيث مكتب محاميه الذي يرغب في تسليمه إضبارة مستندات لإتمام إجراءات طلاقه.

وبينما نحن في الطريق تجاذبنا أطراف الحديث عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي آلت إليها بلادنا، فالوضع أصبح لا يُطاق البتة –وكأنها إرهاصات الثورة القادمة ونحن لا ندري آنذاك– فالشعب في احتقان لم يسبق له مثيل، والقائد الأممي يغطُّ في سُبات عميق، يعيش حياة الوهم والطوباوية، يخطط بتفكير قرْوَسَطي من داخل خيمته البدوية، وهمّه الشاغل هو كيف ينجح في إشباع شخصيته النرجسية، ويُنصِّب نفسه ملكًا على ملوك أفريقيا، في حين أن معظم الرعية – فئة الشباب– يعانون قلة ذات اليد، وأما عن التذمر والسخط العام فيُسمع صداه من إمساعد لرأس جدير!

حقيقةً كانت فكرة الثورة المسلحة للإطاحة بالنظام الجماهيري الاشتراكي مستبعدة تمامًا، وكان الحل لدى معظم الشباب هو "الهجرة"، فمشاريع ما يُسمى بـ"ليبيا الغد"، ومفهومها البريسترويكي المتمثل في فكرة الإصلاح الشامل وإعادة الهيكلة، هشة بامتياز! لذا أصبح كل ما يُسمع من حولنا هو كيف يهرب الشاب بجِلدهِ تاركًا قريته أو مدينته وراءه؛ لعل وعسى أن يصل إلى مراده ويحقق طموحاته. على كلٍّ، وقبيل وُصولنا إلى مكتب المحاماة قال لي صديقي بنبرةٍ واجمةٍ: "أشهدُ اللّه أنني سئمت رتابة الحياة في هذه المدينة، فلا أخفيك سِرًّا أنني عزمت –بعد إنهائي لإجراءاتي والحصول على مخالصتي النهائية من خزينة المحكمة– إن أنا قمتُ بشيئين

فسأكوي يدي (شعفة توبة يا داود ماني معاود)؛ ألا وهما: الزواج من "ليبية"، والبقاء –قالها مهزهزًا بسبابته إلى الأسفل– ها هنا". كشاب في منتصف العشرينيات من عمري آنئذٍ وافقته الرأي، بل أخذني الحماس العاطفي إلى أبعد من ذلك بكثير، فأخبرته بأنني معه قلبًا وقالبًا، فهذه المدينة –للأسف الشديد– أصبحت فعلًا بيئة طاردة، فلا مكتبات فيها لقراءة الكتب، ولا منتديات أدبية أو أمسيات شعرية وثقافية، ولا أندية لممارسة الرياضات الترفيهية، ولا مجالس ودواوين اجتماعية، ولا دور خيالة أو مسرح. هذه مدينة معظم سكانها هائم على وجهه، والأغلبية من شبابها يجيد فن الميوعة والتمعُّج... مدينة المتنفس الوحيد بها يتمحور حول مجموعة من المقاهي العشوائية هنا وهناك لا يتقن أصحابها حتى تحضير "القهوة"، شبه أوكار لجلاوزة اللانظام وقوادي الأمن الشعبي، وأماكن لتفريغ السرطانات والعقم بين الشباب عبر النراجيل والأدخنة، بيد أنها مؤخرًا تطوَّرت وأصبحت أشبه بدكاكين لبيع المخدرات وتسويق الدعارة والمثلية!

نعم... وافقته الرأي وأردفت قائلًا: أتعلم يا صديقي؟ خطرت لي فكرة! ما رأيك بعد الانتهاء من موضوعك أن نتوجه لقريب لي (من الدائرة الأولى) تربطني به علاقة جد طيبة، كان مقيمًا 30 سنة أو يزيد في بلد العم سام، خاصةً وأنه هنا على مرمى حجر، بالتحديد في شارع "الشريف"، ربما يُنير عقولنا ويُفيدنا ببعض الأفكار التي قد تُساعدنا على لملمة أنفسنا وترتيب أمورنا قبل أن ننوي شراء تذكرة بلا عودة.

أعجبه الاقتراح ورفع إبهامه في تحيةٍ لي مع ابتسامة قائلًا: "فكرة جميلة". وبالفعل بعد الانتهاء من إجراءاته توجهنا مباشرةً لقريبي، وطرقت باب شقته لأقول له: أستميحك عذرًا –يا عزيزي– أن أتطفل عليك قليلًا في هذه الأجواء الرديئة، وأعلم يقينًا أن التوقيت غير مناسب، ولكن قيادة السيارة أصبحت شبه مستحيلة، وها نحن ذا –ما لم تُمانع– نرغب في استراحة لعابري سبيل سُوَيعة من الزمن حتى تهدأ العاصفة، فرحَّب أيَّما ترحيب –حيث كان صاحب قلب أبيض وابتسامة دائمة لا تُغادر وجهه الصبيح– وما كان منه إلا أن فتح الباب على مصراعيه مُرحِّبًا: "أهلًا وسهلًا، أهلًا وسهلًا، مرحبًا .. زارتنا البركة" وأومأ بيده اليمنى نحو مجلس الرجال (المربوعة)، وهو عبارة عن غرفة بسيطة سقفها من الجصّ تكسو الرطوبة جوانبه، وتوجد بها جلسة عربية متواضعة جدًّا لدرجة أن بعضًا من مساندها مُرقَّعة، ومنضدة صغيرة الحجم سطحها من الزجاج رابضةً فوقها منفضة للسجائر، بالإضافة إلى إطار معلق يتوسط جدار الغرفة يحيط بالآية الكريمة: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}. وبالرغم من بساطة الفرش والمقتنيات، فإن الشقة كانت نظيفة جدًّا وكأنها رتِّبت للتوِّ؛ بما يُوحي بأن وراءها امرأة "ست بيت" بامتياز ومن الطراز الأول.

وكعادة الضيوف في مجتمعنا الليبي المتواضع البسيط، جلسنا وتبادلنا كلمات الترحيب والمجاملة، وتمت ضيافتنا بقهوة عربية وماء بارد مع قليل من الكحك المُلبّن وآخر محشو بالعجوة. وفي أثناء جلسة المجاملة هذه انتهزتُ الفرصة وقدَّمت له خليلي، وسألته: "أتعلم يا ابن العم، إن زيارتنا هذه محض مصادفة، لم نرتِّب لها؛ إذ كنا ننهي بعض الإجراءات الإدارية ونتحدث

عن بعض الأمور الخاصة فقصدناك للاستراحة، راغبين باستشارتك في أمر يهمّنا أن نسمع رأيك فيه"، قال: "على الرحب والسعة، هاتوا ما عِندكم؟"

أشرنا إلى أن الوضع الذي يعيشه الشباب في بلدنا بصفة عامة، ومدينتنا بصفة خاصة، لا يحتاج إلى توضيح؛ فالأمر جليٌّ للعيان.

- "فهمتُ مقصدكما". قالها معقبًا.

ضربنا له مثالًا على صعوبة الحياة وقسوتها، وكيف أننا كشابين حالمين نرغب في تحسين مستوى معيشتنا، ولا سبيل لنا إلا "الهجرة" والخروج من هذه البلدة الظالم أهلها؛ فنحن في وطننا وبين أبناء جلدتنا لم نحصل على أبسط الوظائف أو الحقوق، والحياة الاجتماعية تغيَّرت هي الأخرى، ولم تعد على المستوى المنشود، فالنساء على سبيل المثال زِدن الطينة بِلَّة فأصبحن أكثر تمردًا، وقليلات منهن الصالحات، وقد وجدنا أنفسنا نسبح ضد التيار في مجتمع كثُر فيه النفاق الاجتماعي والخداع المادي. إننا يا ابن العم نرغب بنيَّةٍ صادقة في الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية (أرض الفرص والأحلام).

ضحك -رحمه الله- على الجملة الأخيرة، وسرعان ما عدَّل جلسته وتدارك نفسه وتابع الإنصات لأحلام الفتى الطائر! وطوال الحديث كان ينعم إلى النظر بعيون طالما ذكّرتني بشخصية "**جون دي بونت**" في فيلم **صائد الثعالب**.

وما زلنا به حتى أفضينا إليه بأحلامنا الشبابية الممزوجة بالشكاوى.

- "هل انتهيتما من طرحكما؟" سألنا.

- "نعم" كانت إجابتنا.

أسند ظهره إلى مسندٍ وأخرج من جيبه لفافة تبغ. أشعلها وسحب منها نفسًا، ثم ابتسم قائلًا:

- "أعيراني سمعكما، رحمكما الله. بادئ ذي بدء، هل تريدون الحقيقة أم ابن عمها؟"

- "الحقيقة"، أجبناه.

- "ما تفضَّلتما به هو واقع فُرِض علينا ومكتوب على جباهنا، فالحياة ليست سهلة سواءً هنا أو في ماما أمريكا، بل على النقيض تمامًا، الحياة في أمريكا قد تكون أصعب مما تتصوران؛ لأن الأخيرة التي تُشاهدانها في أفلام الفيديو ليست هي أمريكا التي عرفناها. أمريكا بلد يحكمها الكربوقراط وبارونات المال، وهي ليست دولة وإنما إمبراطورية، رُبما تلجأ إلى قرية نائية في هذه الإمبراطورية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ لتقتات على فتات العلوج الذين تمتلئ قلوبهم حِقدًا ودَغَلًا على كل ما هو مسلم حتى لو كان طفلًا، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنك حققت حلمك الذي ترنو إليه وهاجرت لأجله؛ الواقع عكس ذلك".

- "ماذا تقصد؟" سأل صديقي.

فأجاب قريبي:

- "هناك الكثير من الأمور التي قلما تسمعون عنها لأسباب عديدة؛ فعلى سبيل المثال، هناك قصة لمُهاجر ليبي يملك مطعمًا في إحدى الولايات الشرقية الجنوبية، ومطعمه لم يكن يلقى رواجًا كما ينبغي بالرغم من اهتمامه بتفاصيل العمل وإتقانه له. إن السبب في ذلك يرجع إلى "العنصرية الخفية" السارية في الولاية التي يقطنها؛ حيث قاطعه سكانها بطريقة

لا إرادية، لدرجة أن أحدًا لم يعد يبتاع منه، ولم يستطع التسويق لنفسه، فلجأ إلى تغيير محل إقامته وانتقل إلى بلدة أخرى قام فيها بإدارة العمل من جديد في الخفاء (أي من وراء الكواليس)، فلاقى المطعم رواجًا طيبًا ودارت عجلته.

ومن خلال تجربتي الشخصية في هذه الإمبراطورية، حاولت –بعد إتمامي لدراستي التي كانت دراسة تقنيّة عملية– التقدم لمجموعة من الوظائف لكن دون جدوى. لماذا؟ ببساطة لأن اسمي يَشي بأنني مُسلم. حاولت التأكد بنفسي واختبار هذا الفرض فقدمت لجهات متعددة باسم آخر لا يدل على أنني مسلم وتم التواصل معي.

بعد إدراكي لهذه العنصرية الخفية، قررت أن أفتتح عملًا خاصًا بي وألا أكون تحت رحمة هؤلاء العلوج، فأنا بحاجة إلى توفير الطعام على مائدة منزلي، ولديَّ أربعة أطفال "أفواه" تحتاج الإطعام، فما كان مني إلا أن توكلت على الله وأدرت عملي من وراء الكواليس؛ حيث وضعت فتاة أمريكية بيضاء في الواجهة تُدير المبيعات المباشرة مع الجمهور. أما أنا فكنتُ أدير الحسابات.

توكلت على الله واستعنت به فاستمر هذا الحال، واعتمدت على نفسي حتى جاء اليوم الذي بلغت فيه بناتي؛ وهو ما اضطرني إلى أن أصارح زوجتي أمَّهنَّ بأن الوقت قد حان للرجوع، وكان ردُّها – باركها الله:

- "سمعًا وطاعة؛ فالهدف ليس المال أو رغد العيش، وإنما إنقاذ ما يُمكن إنقاذه".

عرضت عملي للبيع، ومنزلي كذلك، وقمت بتصفية العديد من الأمور الجانبية وعدت نهائيًا لبلدي ليبيا لأجد نفسي أبتدئ من الصفر؛ فالمبلغ الذي عدت به لم يكن يتجاوز الـــ52 ألف دولار –حصيلة

30 سنة من الغُربة– وبدأت رحلة البحث عن عمل جديد، فتحصَّلت على وظيفة لا تكاد تذكر، ولكن بمرتبها الذي كان يدر عليَّ 427 د.ل في الشهر؛ كنت جدَّ مسرور، خاصةً أن جهة العمل أفادتني بأنه سيكون لي ضمان اجتماعي.

وأما فيما يخص الزواج من غير الليبية، فثقوا وتأكدوا بأن النساء جميعهن ذوات طبيعة واحدة، وتفكيرهن واحد، وما يميز إحداهن عن الأخرى هو فقط الوعي الديني الذي يختلف من واحدة لأخرى؛ لذا من يرغب في الزواج بأجنبية، فليثق ويتأكد بأنه لو قُدِّر لكما الطلاق، فإنها ستدفعك لبيع كل ما تملك، فتخرج من المولد بلا حمص ويداك على رأسك فاغرًا فاك، متمتمًا في تعجُّب: هاه هاه؟! فهنَّ (يعني الأجنبيات) –واللّه– نساء غير جيدات، سفعاوات الخد، مخادنات، لا يَلِقْنَ بتركيبتنا الاجتماعية أو الدينية إلا من رحم ربي واهتدَت إلى الإسلام، وهذا يكاد يكون شبه مستحيل؛ فإن المسلمات منهن كذلك تفكيرهن ملوَّث بالشوائب.

إذا قررتما الذهاب –مؤقتًا– لغرض بناء الذات والتطوير والتحصيل العلمي المميز، فلا بأس –إن شاء اللّه– وأشدُّ على أيديكما، وأما إن أردتما الفرار من الواقع لترتميا في أحضان الغرب، وتسمران، وتشربان الجعة، وتدخنان القنب، وتحاولان اقتحام سوق عملهم، فهذا -واللّه– ما لا تطيقانه؛ لأن أحدكما ببساطة ابن لبون، لا ينهض بما يحتمل، وقديمًا قيل:

وابنُ اللَّبونِ إذا ما لزَّ في قرَنٍ   لم يستطع صولة البُزْلِ القَناعيسِ

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

ما لا يجيء

فيصل غمري – السعودية

في مقعدي بمحطة انتظار الحافلات متصفحاً عدد الأسبوع الفائت من الصحيفة ذاتها التي أقرأ أخبارها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لكني وخلال السنوات القليلة الماضية لاحظت أن الأخبار أصبحت متشابهة.. بل مكررة، فالخبر الذي تقرأه اليوم ستجده في عدد الغد مع تعديل بسيط، حتى المقالات تشعر وأن الكتاب لم يعد لديهم مواضيع جديدة للكتابة، لذلك قررت أن أكتفي بأخذ الصحف القديمة من صالون الحلاقة الموجود في آخر الشارع مجاناً وأقرأها، حتى أن الحلاق لا يشترط أن أحلق ذقني أو رأسي لأحصل على الصحف القديمة، كم هو رجل طيب.

أخبار العالم مكررة و رتيبة، ولهذا السبب لم تصبح أخبار الحروب و المجاعات و الفقر والبطالة والاغتيالات والقتل والسرقة والنهب تهم أحداً، ربما تهم الصحفي الذي كتب الخبر كي يرى اسمه مكتوب أعلى الخبر، الناس أصبحت تهتم بأخبار الرياضة و نتائج المباريات في كرة القدم على وجه الخصوص، و المراهقين يتتبعون أخبار نجوم الفن ويبحثون عن صورهم، ومن تزوج و من تطلق ومن النجم الذي لا يريد أن يعترف بابنه الذي أنجبه من الفنانة المشهورة! لكن حتى هذه الاهتمامات قلت لدى الناس فأصبح الآن همّهم معرفة أسعار السلع الغذائية و هل سترتفع ضريبة الشراء مرة أخرى أم لا، وهل ستدعم الحكومة أسعار الدواء و تتكفل بعلاجهم أم لا! هل مصاريف الدراسة ستنخفض؟ هل أزمة السكن ستحل كما سمعوا من وعود في أكثر من مرة؟

بينما أنا منهمك في التفكير و القراءة أو للدقة لنقُل أني أمثل دور المنهمك في القراءة فأنا قد قرأت هذا العدد للآن أكثر من أربع مرات، جاء رجل تبدو على ملامحة الوقار يحمل حقيبة، اقترب مني و ألقى التحية ثم قعد في المقعد الذي يليني بمقعدين، فالمحطة فارغة لا يوجد بها ركاب ينتظرون الحافلة سواي، لكن الآن أصبحنا اثنان، شخصان بالانتظار.

مرت دقيقة، دقيقتان، ثلاث دقائق... وهذا القادم لا ينبس ببنت شفة، هل سيظل صامتاً للأبد؟ لا، لن أعطيه فرصة فالانتظار سيطول وسنبقى هنا لفترة من الزمن ولا أريد أن أبقى صامتاً أحدق في الصحيفة التي أكاد أن أحفظ ما جاء فيها عن ظهر قلب، نظرت باتجاهه و قلت:

– أنا عبدالمهيمن وأسكن قريباً من هنا، هناك خلف تلك البيوت لن تراه من هنا فهو بيت صغير مكون من طابق واحد، ثلاث غرف و دورتي مياه و مطبخ.

نظر إلى نظرة قرأت فيها تعجبه مما قلت! أشرت له في اتجاه طريقي للبيت و صمتٌ عشقاً أن يرد، أن يعلق، لكنه هزّ رأسه و اغتصب ابتسامة سريعة خفيفة وضعها على شفتيه و قال:

– أهلاً !

ولم يزد على ذلك حرفاً واحداً!

لم تعجبني هذه الإجابة المقتضبة فأنا أريد أن أفتح موضوعاً للنقاش، أريد ان أتكلم...! قلت:

– أنا كما ذكرت لك منذ قليل أسكن قريباً من هنا، تقريباً خمس دقائق مشياً على الأقدام، كل يوم صباحاً أستيقظ مبكراً و آتي إلى هنا كي أذهب إلى عملي مستقلاً الحافلة. في الحقيقة

ليست هذه الحافلة بل حافلة الشركة التي أعمل بها، فأنا موظف في قسم التغليف في شركة الأغذية. في الحقيقة ليس في قسم التغليف بالضبط فأنا حارس أمن و موقعي أمام بوابة قسم التغليف .

في الحقيقة أنا حالياً لا أعمل فقد استغنت الشركة عن خدماتي، منذ ثلاث سنوات وأنا عاطل بلا عمل، أخبروني بأنهم ليسوا بحاجة إلى كل هذا العدد من حراس الأمن، و قلصوا عدد الحراس إلى النصف، عندما أبدينا امتعاضنا مما حدث و ثرنا لهذا الاستغناء المفاجئ شرحوا لنا السبب، نعم شرحوه بالتفصيل، فقد اجتمع بنا عدد من مسؤولي الشركة، مدراء عموم، كانت أول مرة أراهم عن قرب، ما أزال أتذكر مناصبهم التي أخبرونا بها عندما بدأوا حديثهم معنا، سعادة المدير العام للأمن، و سعادة المدير العام لرأس المال البشري، و سعادة المدير العام للمالية، قالوا لنا أن الشركة تمر بظروف صعبة جداً و لابد لنا أن نتفهم ذلك، وأن الهدف ليس قطع رزقنا لا سمح الله،بل لتقليص النفقات! ومن يومها وأنا آتي إلى هنا كل صباح، ربما لأني اعتدت ذلك.

صمتٌ و نظرت إليه ربما يعلّق على ما أقول، لم يقل شيئاً! سألته:

- وماذا عنك؟ هل استغنوا عنك أنت أيضا في شركتك؟
- لا .
- جيد.

لحظات صمت مرت، لا أدري لماذا يرد عليّ باقتضاب هكذا؟ أكملت حديثي:

- أين وصلنا؟ نعم، عندما أن أخبرونا أنهم استغنوا عنا لتقليص النفقات، يومها قال المدير العام لرأس المال البشري أنه سوف يفعل المستحيل لإعادتنا للعمل مرة أخرى في أقرب فرصة أو إذا لم يتيسر له ذلك فسوف يحاول أن يجد لنا جميعنا وظائف في شركات أخرى حيث أن معارفه كثيرون و يستطيع أن يتوسط لنا في إيجاد وظيفة جديدة، وأخبرنا أن الشركة و تقديراً لظرفنا سوف تصرف لكل واحد منا مبلغ مالي يساوي مرتب شهر بالإضافة إلى مكافأة نهاية الخدمة. صفق مدير عام الأمن استحساناً فصفقنا نحن أيضاً تلقائياً، و قدموا لنا شطائر و عصير تناولناها و شكرناهم و انصرفنا .

صمتَّ و هو ما يزال صامتاً...! بدا أن الصمت سيأخذ جولة جديدة بيننا، لكن لا، سأكمل حكايتي، تابعت:

- ومنذ ذلك اليوم وأنا عاطل، لم يطلبوا منا العمل في الشركة مرة أخرى ولا توسط لي سعادة المدير العام لرأس المال البشري في وظيفة، مسمى وظيفته طويل أليس كذلك؟ حتى مكافأة نهاية الخدمة و المرتب الإضافي اللذين حصلت عليها صرفا خلال الست شهور الأولى بعد تسريحي من العمل! بعت كل شيء أمتلكه، السيارة و ذهب زوجتي و أثاث غرفة الجلوس، حتى ساعتي قمت ببيعها، فما عاد للوقت عندي من قيمة.

الآن تقريباً نعيش على صدقات أهل الخير و المحسنين أنا و زوجتي، رزقنا بولدين مات الأول منذ عشرين عاماً بعد ولادته بشهرين و بقي الثاني، هو الآن في الثامنة عشرة من عمره، لم نعد نراه إلا لماماً، فقد سئم من فقرنا و قلة حيلتنا و قرر السفر منذ ثلاث سنوات بعيداً ليبحث عن

عمل، ركب البحر و اتجه شمالاً لا نعلم إلى أين، وصلنا منه خطاباً مع أحد المهاجرين هناك طمأننا فيه على نفسه ورجانا أن ندعوا له بالتوفيق و بعدها لم نعد نسمع عنه أي أخبار، عساه دوماً بخير، زوجتي أحست أنها فقدت ابنها فصمتت عن الكلام، وأصبحت لا تتكلم أبداً. تعرف لماذا آتي كل يوم إلى هنا؟ لا لأنتظر الحافلة كما تظن، فلا حافلات تمر من هنا، أنا آتي وأقعد آملاً أن جد شخصاً أتحدث معه، لكنك خيبت أملي فأنت صامت.. صامت جداً.

فزّ واقفاً ونظر نحوي بغضب و قال:

– ماذا قلت؟ لا تمر حافلات من هنا؟ كيف هذا؟ و لماذا هذه المحطة هنا إذن؟!

– نعم لا حافلات تمر من هنا، خط سيرها تغير، هذه المحطة مهجورة لكن أنا من يقوم بتنظيفها كل يوم لتبدو وكأنها في الخدمة و ليست عاطلة مثلي، كذلك ربما أتى أحدهم فأتكلم معه، لقد سئمت الصمت. فالحافلات أصبحت تتخذ من الطريق الآخر الموازي لهذا الطريق مساراً لها وهناك توجد المحطة الجديدة، كذلك في بداية حديثي عندما وقفت مشيراً في اتجاه بيتي كنت أنوي أن اخبرك بأن المحطة الجديدة هناك لكنك لم تبد أي اهتمام!... انظر معي هناك خلف تلك البيوت..

ووقفت لأريه الطريق الموازي فهو خلف المنازل المتناثرة خلف المحطة التي نقف عندها، أشرت له بيدي في اتجاهها ثار في وجهي:

– وطالما أنك تعرف أن لا حافلات تمر من هنا لماذا لم تخبرني بذلك؟!

– لأنك لم تسألني! ولولا أنني سردت لك قصتي ما كنت لتعرف!

بغضب حمل حقيبته الجلدية و مضى في الاتجاه الذي أشرت له به. وجدت نفسي وحيداً مرة أخرى،

تناولت الصحيفة و وضعتها تحت إبطي ومضيت.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

الأربعاء الكئيب

أماني اسكندراني – سـوريا

استيقظت لين صباح الأربعاء الخامس من أيلول، لترى عالماً مشبعاً بالسواد محيطاً بها من كل جهة، تصرخ وتتألم لكن لا يسمع صراخها أحد، تحاول الإمساك بهم ولمسهم، لكن دون جدوى، حتى باءت كل محاولاتها البائسة بالفشل، ولم يعد للصراخ معنى.

هدأت ولملمت شتات نفسها محاولةً استيعاب ما يدور حولها، فالعويل يذاع عبر الأفواه، والتأوه يصارع نبضات القلوب، وقطرات الحزن والألم تنساب برقة دون أن يمنعها أو يوقفها أحد، قاومت النسيان وبدأت تجتر ماضيها اجترارًا لعلّه يوقظ ذاكرتها المتخاذلة الضعيفة، لكن عبثاً ما كانت تفعل.

بدأت الظلال بالتحرك والمسير عبر متاهات الزمن، وأمام أعين مترقبة خائفة، وأخرى متعاطفة حزينة، وثالثة ملتاعة مشفقة... وأخرى وأخرى... ، إلى أنْ توقفت الظلال، لقد حان الوقت.

إنّه وقت الوداع، لحظةٌ لا رجوع منها، فراقٌ لا لقاء بعده، ثمّ أنزلت اللوحة متكسرة مهترئة، أنزلت قطعةً، قطعة، ليتم جمعها معاً ويُعاد تشكيلها ثانية في مكانٍ عميق لا يصل له نور ولا يطاله حزن، ليُقال: ها قد اجتمعتم من جديد، لن يفرقكم أحد.

كانت لين ترى كل هذا بعينين غير مصدقتين، متفاجأتين حيناً، وربما فرحتين حيناً آخر.

لم يكن هذا اللقاء ممكناً لولا هذا، فالأيدي ممسكة ببعضها، والهدوء والسكينة تصبغ الهالة المحيطة، وبات للتسامح مكاناً بعد أن طرد البغض والحقد والنزاع.

تخبر لين نفسها بأنّ انعكاسها جميل وصورتها أصبحت أفضل بكثير، فما قد تمنته يوماً قد نالته الآن، أليست هذه السعادة بعينها، تنتقل بين الجموع واحداً واحداً لتخفف عنهم وتطمأنهم بأنّها بحالٍ أفضل وأنّ من معها لن يدعوها وحيدةً بعد الآن، سيشاركونها جميع لحظاتها، سيشاركونها صمتاً وهدوءً.

تتحدث إليهم وتسرّ إليهم بأسرارها التي لم تفكر للحظة أن تشاركها أحد،بل وحتى نفسها، فقد كانت حبيسة زاوية مجهولة في أغوار نفسها لا يعلم مكانها أحد.

تسقط عبرة وتليها أخرى وأخرى.... دون توقف، إنّها لحظة تشعر فيها بجمود كل شيء من حولك، ربما تشبه توقف الساعة عن الدوران، ونوم الشمس دون استيقاظ، وسفرٌ للقمر دون عودة.

تمسح لين دموعها بيديها الشفافتين، وتحمدُ الله على هذه النعمة، فمن كان تائهاً قد عُثر عليه، ومن كان متدثراً بالشهوة والنشوة قد فُكّ عنه، ومن كان مقيداً بقيد البعد والوقت قد تحرر، ومن كان معنّف بجبروت الألسنة والقيل والقال فقد شفي، ومن كان يقف على سماء موطنه خذيلاً مقهوراً قد انتصر.

أجل إنّها عدالة السماء التي لا تفوقها عدالة، الآن قد انتهى كل شيء، انتهى زمن المطر الأسود، وانتهى فصل الشتاء المرير بسمائه المتدثرة بألوان رمادية، وشمسه الباردة، ورياحه القاسية، انتهى زمن تراقص البيوت المصطفة على موسيقا الغدر والألم، انتهى زمن الأصوات المنذرة المهددة، ودقات الطبول المتسارعة، انتهى زمن اللهاث والخوف، وانتهى زمن الآه يا أمي، انتهى زمن الآه يا أمي.

الآن أراك يا أمي، بوجهك الملائكي الذي افتقدته، وصبرك الذي فاق صبر النبي أيوب عليه السلام… أراك الآن قد خلعت عنك وشاح القلق اللا متناهي، والخوف لترميهما بعيداً ولترتدي ثوب الزفاف الأبيض. هذا اليوم هو عرسك، والجميع يزفونك بعيونهم المحمرة، وشفاههم المرتعشة، وقلوبهم الشاكية… تتوسطين الجميع كملكة تحمل على أكتاف العبيد، تتناقلك الأيدي المحبة بينها لتلمس وجهك الناعم الأبيض… الكل يحتفل بكِ حتى أوراق الشجر تعانق بعضها البعض كأنّها تقول لك ستفتقدك، ستفتقد من كان يستيقظ معها باكراً قبل بزوغ الفجر يدعو ويهلل للمولى سبحانه.

أراك الآن مبتسمة، هل أنتِ كذلك حقاً؟ أم أنني أختلق صوراً ومشاعر؟ أم تراني أصنع قناعاً وألبسك إياه؟

أراك الآن قد أعددت لنا وجبتنا الأخيرة، كم كانت شهية، ربما لن نجوع بعدها يوماً يا أمي.

هل أنت راضية؟ فعروسٌ مثلك تشهد عرس أبنائها وبناتها معها، لحريٌ بها أنْ تكون أكثر الناس سعادة… فها أنتِ تشعين نوراً وضياءً، ترافقك ابنتيك بثوبهما الأبيض الطويل، كلتاهما تمسك بطرف ثوبك، كصغيرتين لم تفطما بعد.

وأنا يا أمي، ماذا عني؟، أرجوكِ لا تفطميني عن صدرك؟، دعيني أرضع بلا توقف… لم أكن يوماً ملجأ لك، ولا عكازةً ليدك، ولا منديلاً لعبرتك… ربما لأنني لم أكن نزيلةً في رحم أمومتك يوماً، فلم تكوني قادرة على منحي غرفةً في قلبك، أعلم أنّني لم أكن يوماً كأختيَّ، لكنني رغم هذا أحبك.

ألا ترين هذا، ها أنا أقف أمامك ممسكةً بأزهار بيضاء، لم أشأ الابتعاد عنك يوماً، كنتُ دائماً أحاول تنظيف أرضٍ داخلية، لأزيل عنها همّاً أرقها ولم يدعها تنام أبداً.

أمّي، انظري... انظري إلى بطاقات الدعوة التي صنعتها من أجلنا، إنّها حمراء اللون كشقائق النعمان، ألا تحبين اللون الأحمر؟ إنّه لونك المفضل يا أمي.

أمّي، كم أحب تكرار كلمة أمّي، فلها وقعٌ جميل في نفسي.

أمّي، أتذكرين حين قلتِ لي في ذلك اليوم هلوسات وأوهام عن مملكة أخرة ومملكة أخرى سواك، عن ملكٍ آخر سوى والدي العزيز، عن حياة أخرى مختلفة عن حياتي، لم ولن أصدقك، وأدعو لك اللّه أن يشفيك منها... فليس في هذا الكون ملكةٍ سواك، يكفي نظرة من عينيك العسليتين الصافيتين لتشعرني بالبهجة، يكفي لمسة صغيرة من يدكِ ليزول ألمي.

لماذا ترغبين دوماً في سرد مسلسلٍ تاريخي مزيف، لما لا تقصين عليّ قصصاً أجمل كسندريلا أو فلة... ألا تحبين قصص الأطفال يا أمي؟

لا أخفيك يا أمي أنّني لن أستطيع منحك دمي ولا خلايا جسدي، وكم يحزنني هذا، فلو كان الأمر بيدي لمنحتك كل ذرةٍ من جسدي... أمّي، ألاّ تذكرين حين تعالت الأصوات واشتد الصراخ، وبات الانفصال حلاً سلمياً، فتمّ التقسيم، ولم يكن لي حينها نصيباً من القسمة، وتركتُ كأثاث مهمل لم يشأ به أحد.

أعلم أنّ النسيان قد غلّف عينيك وقلبك حينها ومنعك من رؤيتي... أمّي، أليس اسمي جميل؟ لم يكن يوماً يعجبك، لا أعلم لماذا تركتني أحمل لقباً لا يعجبك، لكن لا عليكِ يحق لك تسميّتي ما شئت.

ولكن يا أمي أليست الزهور أجمل من القرود؟ وأليست الورود أجمل من الخنازير؟ ووووو.

ومع هذا، فكل نغمةٍ تخرج من فمك لتصل لسمعي هي فضلٌ من اللّه.

أمّي، ماذا عنّي الآن؟ أراهم يأخذونني بعيداً، لماذا يا أمي؟ هل لقبي الجديد لا يسمح لي بالبقاء معكِ في منزلك هذا؟

أرجوكِ يا أمي، أخبريهم أنني لا أريد أي عنوان أو صفة، فقط أريد ملازمتك... ألا تعلمين أنتِ قطعةٌ مني، وإنْ لم أكن أنا كذلك بالنسبة لك... أرجوكِ يا أمّي، اسمحي لي أن أكون خادمةً لك وتحت قدميك... أعدك أنني لن أبكي إذا رأيتك تغلقين باب حنانك في وجهي... أعدك أنني لن أحزن إنْ كان ملمس يدك قوياً على وجهي... أعلم أنّك لا تقصدين أذيتي... أرجوكِ يا أمّي، أرجوكِ، لا تجعليهم يطفئون شمسي، ويظلموا ضوء قمري.

ماذا الآن؟

أرى الحيرة تقتلهم، وأراهم قد تخلّوا عني، أجل إنهم يدعونني الآن.

أنظر إليك ولأخوتي تنامون بهدوء في منزلكم الجديد، فماذا عنّي يا أمّي؟

لقد ساد الصمتُ المكان.

أمّي، أمّي، أمّي؟

أفتح عيوني المغمضة، منذ متى وهي مغمضة؟ لا أعلم يا أمي؟.

أرى وجوهاً تُصرع، وأخرى تترامى كخرقةٍ بالية، وثالثة تبكم، ورابعة وخامسة.

من هم هؤلاء يا أمّي؟ ومن هذه التي تصرخ صراخاً يهتز له عرش الرحمن يا أمّي؟

إنّها تعتصرني، كأنّها لا تصدق ما حدث.

أرى نفسي بثوبي الأبيض، فلماذا لم أزف معك يا أمّي؟ الم نتفق أنّ العرس جماعي؟

لماذا يا أمّي لم أعد أراك أو أرى أخوتي؟ لماذا يا أمّي؟ أين ذهبت؟

أرجوكم أبعدوا هذه الملتاعة عني؟ من هي وماذا تريد مني؟

إنّها تقول شيئاً، أسمعها تقول تلك الكلمة التي دعيت الله مراراً وتكراراً في صلواتي أن أسمعها يوماً "ابنتي، حبيبتي، غاليتي".

لماذا وجهي مبلل؟ أتراها تمطر؟ أم أنّ لي سماءً أخرى تمطر عليّ وحدي؟

أأحلم؟ أم أنّ هناك قلباً قد جعلني نزيلته؟ وفماً مبتسماً ومرتعشاً ينادي باسمي لين؟ وعيناً دامعة تسكنها صورتي.

ماذا؟ ماذا تقول؟ هل تسمعون ما أسمع؟ إنها تناديني بأمّي؟

أمّي، أمّي، لن أتركك بعد الآن... كان يوماً غريباً يا أمّي؟ يوماً كان كسنين وسنين؟ سنيناً وشهوراً ودقائق وثوان؟

إنّه يوم الأربعاء الكئيب يا أمّي، أم هل أقول إنّه يوم الأربعاء الجديد يا أمّي.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

جولة الذكريات

رويده عبداللّه – العراق

أتذكرينَ يا سمية كيفَ كُنتِ تركضين في هذا الشارع كالفراشة تتنقلين من زهرة لأخرى في حيّنا الصغير، لكن الآن تغير كُلَ شيء لقد تغير شكل بيتنا بل هدموه كُلياً وبنوا في مكانه قصرا، لقد مات بيتنا الصغير بعدنا يا أخيتي، وهل تعلمين لقد مات من اشتراه بعد أن بنى هذا القصر الفاخر ، مات قبل أن يسكنه وها هم الورثة يتمتعون به الآن بدون تعب، ترى هل يدركون كم احتوى هذا البيت من ذكرياتٍ وضحكات ومشاجرات؟! وكيف لهم أن يعرفوا وهم لم يعرفوه أبداً.

أنا الآن أتجول في المدينة ولن أغلقَ الهاتف سأبقى أنقل لكِ ما أراه بشكل مباشر، أعلم أنكِ تشتاقين لهذه الأماكن التي شهدت على طفولتكِ، انظري إلى هذه الطرقات إنها ليست التي نعرفها سابقاً لكن السكان لا زالوا كما هم لم يتغير أحد أبداً؛ لا زال الفقيرُ فقيراً والجشعُ يزدادُ جشعاً والخبيثُ يزدادُ خباثة.

أترين سأصلُ الآن إلى المدرسة (مدرستنا الابتدائية)، آهٍ من الحنين إن قلبي يعتصرُ ألماً، لم أنسَ أي شيء أبداً وكأني كنتُ بالأمس هنا؛ نقفُ جميعاً ننتظرُ أن يحينَ وقت خروجكم لندخل بعدكم متدافعين متشاجرين والصخب يملؤ المكان.

الآنَ سأنتقلُ إلى الجهة الأخرى التي تفضّلين السير فيها، ها هو الطريق الهادئ الذي كان يعجبك رغم أنه مخيف هل تذكرين كيفَ كُنتِ تسيرينَ وحدكَ فيه مستمتعةً حتى أحياناً كُنتِ تسيرينَ مغمضة العينين! لقد كُنتِ طفلة مجنونة حقاً، أنى لهذه الذكريات أن تعود وكيف لها ان تكونَ

بكُلِ هذا الجمال، أم أن المأساة التي نعيشها الآن تجعلنا نشعر بأن كُلَّ شيءٍ في الماضي كان أجملَ وأفضل.

لقد حلَّ المساءُ الآن وبدأت الشمس بالغروب وما أجملَ الغروبَ هنا، حيث كنا لانزال نلعب ثم تنادي علينا أمنا لندخل، ونود حينها أن نقتطف بضع دقائق إضافية لنكمل اللعب مع الآخرين.

أنا الآن بجانب المحلات القديمة سأتجول قليلاً وأنقُل إليك ما أراه؛ ها هو بيتُ صديقتُكِ الكائن بالقرب منها، لكن لا أدري إن كانوا لا يزالون يقيمون هنا أم رحلوا أيضاً، لقد كبر الجميع لكن لا تزال طباعهم كما هي؛ ها هي محلاتهم متلاصقة ببعضها متشابهة ولا أدري لماذا كنا نفضل أن نشتري من صاحب الدكان الأيسر؛ ربما لأنه كان مرحاً أكثر، سأشتري لكِ شيئاً جميلاً منهم يكون تذكاراً، آه نسيت لقد أردت مني أن أسألَ عن صديقتُكِ سُعاد، ولكن لم أعرف عنوان منزلها، لقد قُلتِ أنهُ بالقربِ من السوق الشعبي، سأسال عنها حتماً فقط أرسلي لي معلوماتٍ أكثر، فأنا ذاهبٌ غداً إلى السوق وسأكونُ على تواصلٍ حينها بالتأكيد.

سأعود الآن إلى بيت صاحبي فلم أجلس معهُ كثيراً منذ الصباح وأنا أتجول، سأسلكُ طريق المسجد لأرى ماذا تغير هُناك، أنظري هذا الفرن! اتذكر أننا أتينا ذات مرة ووجدنا أحدى زميلاتُك المتعجرفات هنا؛ كانت ترتدي ثياباً عاديةً جداً، حينها تفاجئتِ عندما رأيتِها وكيف أنها لا تبدو كما في المدرسة، نعم يا أخيَّة هكذا هُمُ البشر ليسوا إلا مظاهر.

وصــلــتُ الآن إلى المســجـد لا زالَ جميلاً رائعاً كما كان؛ لم أعرف أي أحـد من المتواجـدين فيه، لقد رحلوا كما رحلنا وأتى غيرهم، هل تعلمين لقد نســيـتُ أن التقط صــوراً نســيـتُ ذلك تماماً، لا بأس سأعوضُ ذلكَ غداً.

آااه هُنا كانت بداية الشـــرارة ما بينَ المســجـدِ والمدرســة قُتلتْ الضــحـيةُ الأولى، وهنا رأينا الدماء صباحاً، ثم سـمعنا عويل أهله، إني أتذكرُ كُلَّ شـيءِ كأن الصـوتَ يرنُّ الآن في أذنيّ، كأن صياحهم وبُكاءهم لا زال يرعدُ في المكان، لقد حدثتني مرة أنكِ مررتِ بجانب باصٍ ذات يومٍ وأنت ذاهبة إلى المدرسـة، ثم قُلنَ صـديقاتُكِ أنَّ في داخلها شـخصٌ مقتول ولكنكِ ولله الحمد لم تُنظُري لداخل السيارة وإلا ماذا كانَ سيحدثُ لكِ لو نظرتي يا صغيرتي، الحمدُلله على عدم انتباهكِ حينها إنَّ الله يُحبكِ.

لقد آلمني قلبي لأسـرعَ في العودة، سـأخبرُكِ شـيئاً... حين مررتُ في الصـباح بالقرب من بيتنا رأيتُ جارتنا العجـوز وكانت معها بناتها وسـلمتُ عليهنَّ، لقد اسـتقبلنني بحرارة بالغة لم أكُن أتوقعها حتى أنهم أصـــروا علي أن أدخل بيتهم، إنهُ مرتبٌ هادئٌ كالســابق غير أنهُ أصـبحَ لديهم أطفال، أتذكرُ كم كانت بناتهم يحببنكِ كانوا لا يُدخلون طفلاً لبيتهم سـواكِ نعم لقد كان الجميعُ هُنا يُحبكِ كثيراً، لقد وصلت سأغلقُ التصوير الآن سلام.

– أخي الحبيب، شـكراً لك لأنكَ أشـغلتَ نفسـكَ بتصـويرِ كُلّ شـيءٍ لتُشـرِكُني معكَ في جولتِكَ الصــغيرة، ســأكتُبُ لكَ ما تذكرته حين أريتني هذه الأماكن، وأعتذرُ إن كُنتُ ســأطيل... اقرأها على فراغك.

نعم لقد أوصيتُكَ أن تسألَ عن صديقتي سُعاد دوناً عن غيرها لأني اشتاق لها كثيراً، هل تعلم ليس لي أيَ صـورةٍ معها ولكنني ما زلتُ أتذكرُ شـكلها كأنها أمامي الآن، لقد كانت ناعمةً رقيقةً مُحبّة، كُنتُ أخرجُ من بيتنا باكراً وأذهبُ إليها قبل أن أذهب إلى المدرسـة لأنتظرها ثم نذهبُ سـوياً، لم نكُن نتشـاجرُ أبداً، إنها أكثر صـديقة كنتُ أحزنُ على فراقها، ولا أعتقدُ أنكَ ستجدها لا بأس أترك الأمر.

حين رأيتُ المدرسـة تذكّرتُ كم كنتُ أحبها ولا أذكرُ أني تغيبتُ يوماً عنها، تذكرت طابور الصباح، المعلمات، وكُلَّ الأصدقاء... كم كانت أياماً مليئةً بالمرحِ والسعادة، عزيزي لمَ لم تمرّ من جانب المزرعة، إني اعشـق ذلك المكان كثيراً والنهر على الجانب الآخر، لقد كُنتُ أذهب هُناكَ أحياناً مع صـديقاتي مع أنهُ مكانٌ بعيدٌ قليلاً عن بيتنا ولكن كنا نلعب بشـكلٍ جميلٍ ومُختلف وكانت هُناك بقعة مياهٍ صغيرة في وسطها صخرة كنا نسميها البحيرة ونتخذُ من تلك الصـخرة مكاناً لجلوسـنا ولعبنا، أترى تلك الأماكن تذكرُنا كما نذكُرها؟، وهل تحنُّ لخطواتنا أو لصوتِ ضحكاتنا وصراخنا أحياناً، أعتقد أن الأماكن أيضاً تشعرُ بمن يعشقها ومن كانت روحه تحوم حولها، إنها حتما تفتقدنا.

سـأسـألُكَ أن تحمل الحنين إلى مدينتنا القديمة، أن تُخبر الطرقات العتيقة كم بكيتُ على الفراق في تلك الليالي البائسـة، أن تُخبر الدرب الذي سـرنا بهِ يوم الوداع بأن الروحَ لا تزال عالقةً هُناك، أخبر زوايا المدينة عن ماضـينا، عن أمنياتنا التي زرعناها ولم تسـفعنا الأيام لسـقيها فماتت من الحزن، أخبر المارّين عن آثارنا... ابحث في وجوههم عن بقايانا، لا تنسَ أن تحمل

الشـوق إلى كُـلِّ رُكـنٍ شـهد على وجودنا، سـأنهي رسـالتي الآن فلقد غلبني الحزن وغابت عني الحروف، إلى اللقاء عزيزي رحلة ممتعة.

- عزيزتي سـميّة لقد قرأتُ رسـالتك الآن، كم أن ما كتبته مليءٌ بالحنين والحُزن، سـأسـيرُ في المدينةِ شـبراً شـبراً وأروي لهذهِ الطُرقاتِ عن تلكَ الطفلة الشـقيَّة التي كانتْ تجوب هذه الدروب راكضةً مبتهجةً، ترفرف بروحها كالحمامة البيضاء الرشيقة.

لا يا صـغيرتي إن أحلامك وأمنياتُكِ لن تموت، أنت أقوى من الحرب ومن كل السـوء في هذا العالم، أنتِ وأشـباهُكِ من سـيُعيدون النور إلى ظلام هذه الحياة، سـتزرعين بذور الأمل والقوة في نفوس الأجيال القادمة، فتنبت عزيمة وإصـراراً، نعم يا أختي إن الأماكن تحنُ مثلنا تماماً وتشتاقنا كما نشتاقها...

- عزيزي عمر إني أشـاهد هذهِ الجولة والمراسـلات كل يومٍ تقريباً لأواسـي نفسـي بل أرهقها بالشوق والحنين ليس للمكان بل لكَ يا من كُنتَ نورَ حياتي، أنا لم أعرف معنى الحياةِ مُنذُ ذلك اليوم الذي لم ترجع فيه! لقد رحلتَ كما رحل صـديقُكَ أيمن وزميلُك مثنى والشـيخ بلال والأستاذ إبراهيم، نعم إن تلك الأرض عطشى للدماء ولا تزال... إنها ترتوي بدماء أحبابها وكأنها تقولُ لهم لن ترحلوا لأرضٍ غيري ليمتزجَ تُرابي بدمائكم الزكية...

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

غرنيكا

نسرين خليل – مصر

ضوء ساطع، يعقبه ظلام، ينسكب ضوء الشمس يغمر كافة أرجاء المعمورة، ثم ظهور مباغت لجماعات كثيرة من الناس، يطيلون النظر ببعضهم البعض، يعلمون جيداً أنهم عالقون بحلم تفوق واقعيته العالم المادي الذي تركوه خلفهم دون ندم، ولأنهم أسرى وهم فقد قاموا بإلغاء هويتهم، والنطق بلغة واحدة، أبجديتها غير مفهومة إلا لهم.

ثمة برودة في الجو لكنهم يتجاهلونها، فهم الآن بصدد مهمة شديدة التعقيد، سيقومون بإنقاذ العالم أجمع، ورغم أن الثمن هو فقدانهم أرواحهم ذاتها؛ إلا أنهم لم يبالوا، فهم يعتنقون مبدأ استمرارية البشرية دون معاناتها أهم من مرادف حياتهم، لا يهم من قام بتلقينهم هذا الهدف، ولكن لا مجال للتساؤلات غير المريحة أثناء النوم.

انتبهوا إلى حركتهم التكعيبية داخل لوحة ذلك الرسام الإسباني الشهير، يتفادون طوال الوقت خور ثيران تهذي، صهيل أحصنة وغبار لا تنقشع رماديته، هناك عويل ثكالى يزن أطناناً يصرع سمعهم، لكنهم رغم ذلك سادرون في حلمهم، ما خلا ذلك اللوحة فسيحة.

سولي، وهي فتاة في التاسعة عشر من عمرها، استيقظت هذا الصباح لتجد نفسها بحفرة ما، قام بانتشالها من سقطتها شخص جهم الملامح، لم يتبادل معها أي حديث، سوى كلمة وحيدة نطقها بصوت أجش: استعدي.

بعدها بدأت المعلومات تتوافد على عقلها، ورغم صغر سنها إلا أنها فهمت مهمتها جيدًا، تذكرت بيتها الكائن بمنطقة نائية، وكيف أنها –بلدتها– قد تعرضت للقصف دون توقف ليلة البارحة، وربما هذا ما جعلها تعلن موافقتها على المهمة، ولم تكن هي الوحيدة التي تم اختيارها، فحولها أعداد غفيرة من البشر المقصوفين، وُكل لكل فرد منهم مهمة تناسب معاناته، وربما المعاناة هي العامل المشترك بينهم، فيما عداها فهم من أجناس مختلفة.

"أنتم من رأينا فيهم القدرة لإتمام المهمة الكبيرة، عليكم أن تقوموا بإطفاء جذوة الحروب قبل اندلاعها"

سرى هذا الصوت داخلهم، وشعر يوسف بالفخر لسماعه تلك الكلمات، وتذكر أنه بنجاحه لن ينقذ نفسه فحسب، بل وطنه المهدور حقه سيتحرر من الاحتلال البغيض، بجانبه رجل يدعى بيتر، تبادل معه بعض الكلمات، وأبلغه بيتر بأنه خائف، بوده لو يلوذ بالفرار، لكنه مضطر أن يتماشى مع تلك اللعبة، وضح له يوسف بأنها ليست لعبة، وأن عليه القيام بها طالما تم اختياره.

"أنتم من أزمنة مختلفة أيضًا، لذا لا تعتقدوا أن بعضكم قد جُن، فبعضكم بمثابة مستقبل للآخرين"

بدأوا سيرهم بخطوات وئيدة، ربما ساد بينهم الصمت لفترة طويلة، لكنهم شعروا بحاجة إلى التفوه بأي حرف، وإن كان علي سبيل الهراء، لذا التفتت ليلى إلى الفتاة النحيلة بجانبها والتى عرفت أنها تدعى كاتيا.

- لماذا تعتقدين بأنه قد تم اختيارك؟

- أنا كاتبة، ومؤلفاتي كلها عن عالم مثالي كما الفردوس!

- أنا ليلى، حقيقة لا أدرى لماذا أنا هنا، ربما لأنني قد قمت بإنقاذ طفل قبل ذلك من حادثة مروعة، وكان الثمن فقداني ساقي اليمنى.

- لكنك تسيرين على ما يرام.

- نحن في حلم يا عزيزتي.

لكزتها كاتيا بلطف، فأكملتا السير في طريق ما كالمنوّمتين.

الضباب هو بطل المشهد، كلما تقدموا خطوة ازدادت كثافته، الغبار يهاجمهم من كل مكان، لا وجود لبيوت أو أي إشارة لوجود إنساني في مكان ما، مع تقدمهم في المسير بدأت علامات حيوات سابقة فى الظهور، كلاب ميتة، بيوت متهدمة، جثث محروقة متناثرة هنا وهناك، يرتسم الألم على وجوههم فيسرى الصوت بداخلهم مرة أخرى، زوايا اللوحة تتصدع، داخل متحف الملكة صوفيا بمدريد، الجمهور يشير إليهم ويضحك.

"هذا ما نريده أن يتلاشى، وبكم أيها الأبطال سيتطهر العالم أجمع من شروره"

بعد هنيهة من التردد التفت شريف إلى الرجل بجانبه قائلاً: هل تعتقد أننا سنستطيع؟

- بالحلم يا عزيزي تستطيع أن تطير في الهواء دون أن تقع.

بدأت همهمات من بعضهم تود التمرد، والإعلان عن نيتهم للرجوع إلى حياتهم، لكنهم تلاشوا وكأنهم لم يكونوا وقد تم استبدالهم بآخرين يؤمنون بأن مكانهم بالحلم أحب إليهم من عالمهم البغيض.

بدأ يعقوب في الكلام بصوت هادئ بالبداية ثم طعمه بإيمانه بالقضية العامة:

- ما الذي يبقينا هنا؟ هل نحن واثقون من نجاحنا بنسبة مائة بالمائة؟! في الحقيقة إن فشلنا في المهمة الموكلة إلينا توازي نسبة نجاحنا، لكن يكفينا شرف المحاولة.

وكأن حماسه قد انتقل إلى الصوت الذي يسرى بداخلهم، فأكمل ما بدأه يعقوب:

"أنتم الأشخاص المثاليون لهذا العمل"

مئات الأفكار تقافزت داخل رؤوسهم، ما بين يقين أحدهم وشك آخر، انتهوا بالنهاية أن كلهم مؤمنون بأن المحاولة تستحق، تغزوهم دفقة تفاؤل لا تنتهي، مستشعرين أخيراً أنهم يستطيعون إضافة كلمة نصر إلى قاموسهم المندحر بالهزيمة.

"عند نجاحكم في مهمة ما سيختفى بعضكم، وحين سيتم الانتهاء التام من كل المهام الموكلة إليكم ستختفون كلكم للأسف"

عانت مريم من الحرب الدائرة بوطنها، كما أن غياب زوجها الدائم عنها لكونه جندي في تلك الحرب، ورؤية شحوب وجه أبيها الدائم، وتعثر خطوات أمها من الخوف جعلها مؤهلة لتلك

المهمة، ورغم يقينها أنها لن تعود كمريم، إلا أنها راضية طالما سيهنأ وطنها وجميع أحبابها بالسلام.

بينما بدا جون السائر أمامها مرتبكاً حيال تفسير ما هو فيه، لكنه بالنهاية لا يستطيع الرضوخ لرغبته في الرجوع إلى وطن مغتصب، وزوجة تود الهروب منه بحجة جبنه، الآن سيثبت لها أنه قوي، لن ينقذ وطنه فقط، بل العالم أجمع، لاحظوا اختفاء بعضهم بالفعل من بين الحشد، فتبادلوا الابتسامات الفاترة، تخطو أفكارهم جنباً إلى جنب مع خطوهم تجاه الحلم، لا يستطيعون التفريق بين الخيال والواقع، لكنهم على يقين بأن أول خطوة لبلوغهم هدفهم الأسمى هو إيمانهم باستحقاقهم لحياة تُشبه الجنة لا تحاكي لوحة أحدهم التكعيبية في الحلم، بيكاسو العجوز يطاردهم بفرشاته، يصرخ عليهم بلغة غير مفهومة، اللون الأسود يلوث ملابسهم، الأبيض والأزرق للمساحات.

"إن كان لكم أن تموتوا قبل أن تستفيقوا، فتذكروا أن موتكم سيكون بمثابة فرصة لغيركم أن يُكملوا الحلم"

انتبهوا لأول وهلة للصوت المعدني يتردد من تثريب دقيق بشق في جهاز التكييف الرئيسي، النبرة مألوفة هي للرسام لكنها مترجمة كل على شاكلة لغته، استيقظ كل منهم على التوالي بأماكن وحدود متباينة الأجواء، تثاءب كل منهم بلا مبالاة، يبتسمون لشأن لا يتذكرونه من الحلم الفائت.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

الجريمة الكاملة: حرب الوجود

محمد عبدالله كبلو – السودان

تثاءب مجدداً، ثم خلع نظارته ومسح عدساتها السميكة بطرف قميصه الوردي المتسخ قبل أن يضع إحدى طرفي إطارها الأسود السميك بين شفتيه، ويرتدي ملامح أفلاطون.

"كما أخبرتك من قبل يا صديقي، لا وجود لكاتبٍ حقيقي في هذه البلاد."

تباً لك يا *نجم الدين*… لست صديقك ولن أكون.

أدخلتُ مسودة روايتي في حقيبة الظهر الجلدية، وجاهدت للحفاظ على ابتسامتي الصفراء وأنا أسأله باهتمام مصطنع: "ولا حتى *الطيب صالح*"؟!

أعاد ارتداء النظارة، وخلل شعره الرمادي المنكوش بأصابع يمناه. "يظهر أنك قد أسأت فهمي كعادتك.. ما أعنيه بكلمة بلاد هو بُلدان العالم قاطبة."

أطلق ضحكة كشخير خِنَّوصٍ أمرد واستطرد: "العالم ملئ بالموهومين. يعتقدون أن الأدب"…

فقدتُ التركيز، وأصبح صوته مجرد خلفية باهتة لضجيج الدهشة في عقلي. هل ما أراه أمامي حقيقي؟! ثمة كائنات غاية في الصغر تنساب ببطء كدرب النمل نزولاً من رفوف المكتبة الضخمة الكائنة خلف *نجم الدين* .كان يتكلم بهدوء زائف فشل في ستر نبرة الحماس، فأخذتْ تطل برأسها بصفاقة بين كلماته. بالتأكيد لم ير بعدُ ما رأيت.

استمرت الكائنات الغريبة في التحرك ولكن بسرعة أكبر. هل حقاً تسارعت حركتها كلما تكلم *نجم الدين* أكثر؟!

"هه.. ماذا تظن؟ هل تتفق معي"؟

باغتني سؤاله. ينظر إلى بثبات بعينين لا ترمشان. تمنيت لحظتها أن أتحول إلى منتاف عملاق، فأنتف ذقنه الرمادية، الشبيهة بذقن التيس، شعرة شعرة.

"لماذا تحدق فيني هكذا"؟!

أنا لا أحدق فيك يا أبله، بل في الكائنات التي تتسلق ملابسك ببطء و...

صرخ متألماً، وانتفض فانقلب بالكرسي على الأرض، وبدأ يهرش جسمه ككلب أجرب. الكائنات الصغيرة تتسابق نحوه، بعضها وصل إلى عنقه والبعض الآخر يمرح على وجهه المصفر. الآن اتضحت الرؤية.. لم تكن الكائنات بالغرابة التي تصورتها، ولكن بشراً أصغر حجماً من عقلة الإصبع. كانوا بكامل هندامهم، وبدا لي أن أحجامهم تكبر مع كل صرخة ألم يطلقها *نجم الدين* !أحد الكائنات يتعلق بذقنه، يمسك بإحدى شعراتها ويتأرجح بها، كطرازنٍ صغير، من جانب إلى آخر متفادياً كف *نجم الدين* التي ما فتئت تضرب بعشوائية على وجهه في محاولات بائسة للتخلص من المحتلين. ولكن عبثاً، فقد بدا لي صغير عقلة الإصبع مصمماً على نتف الشعرة. أخيراً نجح! ومع صرخة الألم التي أطلقها المنتوف ازداد حجم الكائن الصغير وتعاظم في جزء من الثانية، وأصبح واقفاً أمامي بقامته الطويلة، وقوامه الممشوق، وفوديه الأشيبين.

أخذ *أدهم صبري* بخناقي، فشهقت دهِشاً، وسعلتُ وأنا أنقل بصري بينه وبين *نجم الدين* الذي يحاول عبثاً إيقاف غزو الكائنات .

عصب ريقي بفمي. هل أنا في حلم؟! هل كان في القهوة التي شربتُ عقاراً للهلوسة؟

خرجتْ كلماتي مرتعشة مترددة يحملها صوتي الخافت: "ولكن كيف؟! كيف أتيت إلى هنا"؟!

أجابني *أدهم* وابتسامةُ سخريةٍ تتراقص على شفتيه: "لا يوجد نظام أمني محكم مئة بالمئة."

في تلك اللحظة كان عدد لا بأس به من الكائنات تحاول نتف الشعر من رأس وشارب وذقن *نجم الدين*، ومع كل صرخة ألم يطلقها، يتضخم حجم أحد الكائنات ليصبح إنساناً مكتمل النمو. وما هي إلا دقائق حتى اكتظت غرفة المكتب بالرجال والنساء من مختلف الأعمار. بادئ ذي بدء لم أتبين ملامحهم.. لعلها الصدمة.. ولكن رويداً رويداً بدأت أراهم بوضوح أكثر. فهذا العجوز الممسك بلفافة تبغ، ويسعل باستمرار فيخرج الدخان من فمه كبرلين حين دخلها الحلفاء، هو بلا شك *رفعت إسماعيل* .بدا لي فاتناً في بدلته "الكحلية"، وإن كان يبدو معتل الصحة كمستعمرة درن كاملة.

أما هذه الفتاة فتبدو...

"هيا قيديه إلى الكرسي وأحكمي وثاقه يا *سونيا* حتى ننتهي من مهمتنا". قالها *أدهم* بصوت بارد كالثلج، فتقدمت نحوي بثقة امرأة خارقة الجمال، لها وجه نحتته الملائكة، واستقر بين شفتيها الصغيرتين مبسم ذهبي يحمل لفافة تبغ لم تشعل بعد.

أخذتني بجمالها الفتان، فشلّت حركتي ولم أحاول المقاومة أثناء تقييد أطرافي إلى الكرسي.

مازال *نجم الدين* يتقلب على الأرض كمصاب بمغص كلوي. يصرخ ألماً فيتضخم أحد الكائنات مع كل صرخة ويزداد الازدحام في الغرفة.

تجاهلوني تماماً وكأنه لا وجود لي. احتشدوا حول *نجم الدين* المنتوف. لقد توقف عن الحركة، ويبدو أنه فقد التحكم بمثانته. تهشمت نظارته، لا أدري كيف ولكنها تهشمت. أصبح أصلعاً إلا من بعض الشعيرات التي تناثرت على رأسه هنا وهناك، ولم يعد في وجهه شعر، حتى الحواجب والرموش نُتِفت. أصابتني الحسرة وأنا أتذكر أمنيتي بالتحول إلى منتاف عملاق.. تباً، لو تمنيت الحصول على مليون دولار وقتها لحصلت عليها!

"ماذا نفعل به؟ "!

بلكنة فرنسية ثقيلة قالها بالإنجليزية رجل ذو رأس بيضاوي يميل قليلاً إلى الجانب الأيمن، وعينين تشعان باللون الأخضر. كان ضئيل الجسم ضخم الشاربين. هتفت دون أن أشعر: "يا إلهي، أنت *هيركيول بوارو* !هذا مستحيل!"

ازدادت عيناه اشعاعاً وهو يجيبني: "المستحيل لا يمكن حدوثه، لذلك لا بد من أن الشيء المستحيل في الواقع أمر ممكن، بالرغم مما يبدو عليه."

لا يبدو أن *نجم الدين* قد استوعب ما يحدث بعد! ما زال مستلقياً على ظهره شاخص البصر. هل توفاه اللّه يا ترى؟! كلا، ما زال صدره يصعد ويهبط. الحمد للّه!

"لنفقأ عينيه حتى لا يتمكن من القراءة والكتابة مرة أخرى". اقترح *هابيل روزنوفسكي* (من رواية ايبل آند كين)، فعلّق *وليام لويل كين* مستهزئاً: "أساليبكم وحشية ورخيصة كعادتكم أيها البولنديين!"

باغته *هابيل* بصفعة قوية، فردّها له *وليام* بسرعة، وبدا أن الأمور ستتفاقم لولا تدخل جاك *ريتشر*، فبدا كجدار حجري صلابة وضخامة، وهو يقف بينهما رافعاً كفيه الشبيهتين بديك رومي في حجميهما .*ريتشر* لم يقل شيئاً، ولكنه نجح في حسم الفوضى قبل وقوعها.

لم أهتم كثيراً بقيودي، تغلبتُ على الصدمة، وجلستُ أتابع الأحداث في شغف وكأني أشاهد فيلماً سينمائياً سباعي الأبعاد.

تنحنح *شيرلوك هولمز*، ونظر إلى صديقه *واتسون* وكأنه يستأذنه قبل أن يتحدث: "إليك عدستي يا دكتور *واتسون* .أنت تعرف أساليبي."

تناول *واتسون* العدسة المكبرة، ثم انحنى ونظر عبرها في عيني *نجم الدين* الشاخصتين، قبل أن يعتدل ويقول: "عينان مليئتان بالحسد والحقد!"

هز *شيرلوك* رأسه بالنفي: "ركز جيداً.. إنها النرجسية يا *واتسون* .النرجسية الممتزجة بالفشل."

في تلك اللحظة لفت انتباهي رجل ملتحٍ يرتدي معطفاً أبيضاً ونظارات طبية، كان يشق الزحام بمعاناة وأخيراً نجح في الوصول إلى *نجم الدين* .أخرج جهاز قياس الضغط من جيبه ولفه حول

ذراع المنتوف، ثم أشار بيده وقال بصوت جهور: "أنا دكتور *علاء عبد العظيم* من وحدة سافاري، حالة المريض حرجة ولا بد من نقله إلى المستشفى حالاً ."

جاوبته ضحكة عالية انطلقت من... لا أصدق! إنه غراب لكنه يضحك كالبشر. شعرت بأنني قد فقدت عقلي عندما سمعت الغراب يصرخ: "دعه يموت أيها الطبيب الأخرق، وسأحضر لكم سائق عربة أموات متمرس ليأخذه من هنا."

نهض *علاء عبد العظيم* ولوح بقبضته محاولاً النيل من الغراب، ولكن الأخير حلق بسرعة وغادر الغرفة عبر نافذتها.

ما هذا العبث؟! وما هذه القسوة؟! أي جرم ارتكبه *نجم الدين* حتى ينادي البشر والطير بقتله؟! الحقد، الحسد، النرجسية، والفشل لم تكن أبداً مبرراً لقتل النفس!

نظرتُ إليه، كان يتململ ويحاول النهوض من رقدته.. لا يبدو أنه قد استعاد تركيزه بعد، ولا أظنه سيستعيده قريباً، فقد قفز *أرسين لوبين* إلى الأمام وعاجله بركلة في وجهه أرجعته إلى قاع جبّ اللاوعي.

أحاط جاك *ريتشر* وسط *أرسين لوبين* بذراعيه الضخمتين وحمله عالياً كطفل صغير ليبعده عن نجم الدين. لم يتوقف *لوبين* عن المقاومة والرفس.. لا بد أنه لا يدري أن الخلاص من قبضة *ريتشر* ضرب من الخيال.

"اهدأ أيها اللص الظريف.. العنف ليس من شيمك". قالها *أدهم* للوبين ثم استدار ناحية هيركيول *بوارو* وهتف: "لقد أضعنا الكثير من الوقت يا *بوارو*، إن كان لديك خطة فإلينا بها."

تململت في جلستي وقلت بنبرة حاولت أن أجعلها قوية واثقة، ولكنها خرجت عكس ذلك: "لماذا لا تتركوه وشأنه؟ غادروا فقط وتجاهلوه."

سرت همهمة بينهم وتبادلوا النظرات، قبل أن يثبتوا أعينهم علي، ويخاطبني *شيرلوك هولمز* " : أنت لا تفهم يا صغيري.. صديقك يحاول النيل منا وقتلنا كما نال من الذين أوجدونا في هذا العالم."

صرخت في وجهه: "لست صديقه.. لم أكن من قبل ولن أكون أبداً". ضحك *هولمز*، وضحك *جاك ريتشر* ولم يقل شيئاً، وانبرى لي *رفعت إسماعيل* بعد أن تجاوز نوبة من السعال: "إنها حرب الوجود يا بني.. حرب وجودنا في هذا العالم المليء بالجنون. يحاول صديقك، أعني هذا الشخص، أن يجعلنا أساطير رديئة الصنع. كلنا نعلم أنه لا وجود للأساطير. أتفق معك، لا مبرر لقتله، ولكن يمكن أن نطلب من *لوسيفر* أن يأخذه إلى جانب النجوم ويخلصنا من شروره."

انطلقت صرخات التأييد من معظم الحاضرين، وبدأوا يهتفون بصوت هادر: "نجم الدين إلى النجوم.. نجم الدين إلى النجوم.. نجم الدين إلى النجوم.."

وفي غمرة حماسهم تسلل مراهق بدين، تبدو عليه ملامح أهل شمال الوادي، وبيده سكين كبير، الكل منهمك في الهتاف فلم يلحظه أحد، وبمجرد أن همّ بغرس نصل السكين في صدر *نجم*

البدين الفاقد للوعي، قفز *أدهم* إلى الأمام بخفة الفهود، وعاجل الفتى البدين بركلة قوية أطاحت السكين في الهواء، وما إن لمست قدماه الأرض حتى عاجله بلكمة ألقته أرضا على ظهره، فصرخ متألماً وكرشه الضخمة تهتز كحلوى الهلام. أما أنا فقد فغرت فاهي ببلاهة وأنا أنظر إلى *أدهم* وهو شاهراً السكين أمام وجهه! متى تمكن من الإمساك بها بعد أن أفلتها البدين؟ !

لم يتسن لي التفكير في الإجابة، إذ امتلأت الغرفة ببكاء الفتى وصراخه: "لماذا أوقفتني.. لماذا"؟!

اقتربت منه شقراء نحيلة الجسم دقيقة الملامح.. كانت تمشي على العشب دون أن ينثني.. ماذا؟! لا وجود للعشب في الغرفة؟! أجل أعلم.. لا يهم..

جلستْ بجانبه على الأرض، ومسحتْ على رأسه بحنان فياض حتى توقف عن البكاء، ثم حدثتْه برقة: "اهدأ يا *تختخ* ..اهدأ يا صغيري.. الكل حانق على هذا الرجل، ولكن العنف ليس حلاً.."

صغيري؟! أهذا الذي يفوقني طولاً، وشحمه المكدس في غير ما تنسيق، والذي أعطاه مظهر رجل في الأربعين، صغير؟! ليت *ماجي ماكيلوب* مسحت على رأسي أنا بدل هذا ال ...*تختخ*!

في هذه اللحظة شق الازدحام مراهق بدين شبيه بتختخ، وإن كان يحمل ملامح قوقازية واضحة.. كان يجر وراءه كلباً اسكتلندياً أسوداً. جلس بجانب *تختخ* الذي تجلت الدهشة على وجهه.

"اهدأ.. أعلم أنك لا تعرفني.. أنا *فريدريك تورتيفيل*"، ثم أشار إلى الكلب وأردف: "وهذا صديقي *بستر* . لا يجب أن تقول شيئاً، ولكن دعني أخبرك أنك لست سوى نسخة مشوهة مني. أنا الأصل وأنت انعكاسي في مرآة الحياة". سرح بعدها بنظره بعيداً وراح يحدق في اللا شيء قبل أن يستطرد: "هل

تصدق إن أخبرتك أنك والذي أوجدك، سبب مشكلتنا هذه؟! نعم، أنتم الحلقة الأضعف، والثغرة التي استطاع *نجم الدين* وأمثاله من النقّاد النفاذ عبرها للنيل منا بمحو ذكرانا بعد تشويه سمعتنا وقتلنا. أنتما السبب!"

بدأ *تختخ* يبكي مجدداً، فاحتضنتْ *ماجي* رأسه. بحثتُ عن العجوز *رِفعت* ونظرتُ إليه بخبث، كان يتظاهر بالتدخين وأنه لم يلحظ شيئاً!

استمر النقاش والتفاكر بين الشخصيات في الطريقة المثلى للانتصار على *نجم الدين* .اقترح *البصير* (من رواية بلاد السين) ربط خيط بلاستيكي بإحكام حول مخرج البول ثم إطعامه كميات كبيرة من البطيخ، بينما طلب *خيري عبد العزيز* (من رواية روحسَد) أن يمهلوه بضع ساعات يتحدث فيها إليه بعد إفاقته حتى يتسنى له كتابة رواية عالمية عنه. تعالت أصوات من هنا وهناك تطالب بحرقه حياً وأخرى تطالب بقطع أطرافه من خلاف. وبينما كان النقاش محتدماً، اهتزت جدران الغرفة وأرضيتها، وتراءت أمامنا مرآة مذهّبة الإطار، خرج منها رجل ضخم الكرش، مترهلها، أحاط بخصره حزام تدلى منه حسام ممشوق. كان الرجل بلا رأس! الرأس ملقى على الأرض بإهمال، أصلع ودميم الوجه، فتناوله الرجل ونفض عنه التراب ثم وضعه على عنقه وكأنه يرتدي قبعة!

شخصت أبصار الحضور وفتحوا أفواههم ببلاهة.. أجل كلهم.. نعم حتى *أدهم صبري* ! يبدو أنهم لم يتعرفوا على الوافد الجديد، ولكني أعرفه جيداً، فهذه إحدى مميزات أن يكون صديقك روائياً ولا يبخل عليك بقراءة رواياته قبل أن ينشرها.

فجأة تذكرت شيئاً، فصرخت في رعب: "ويحكم.. إنه *نيرجاميس* من أسطورة نيرجاميس ومأزق رسام البورتريه". نظروا إلى متسائلين. الأغبياء.. تباً، إنهم لا يعلمون شيئاً عن *نيرجاميس* ! إنه يكره الأساطير و*نجم الدين* ليس أكثر من أسطورة بالنسبة لهم جميعاً.

بحثتُ عن *نيرجاميس* فصدمني هول ما رأيت.. يمناه مازالت قابضة على السيف ونصله يقطر دماً، ويسراه ممسكة برأس *نجم الدين* المفصول عن جسده، وما هي إلا لحظات قبل أن يلقي بالرأس بعيداً إلى زاوية الجدار.

خيم الصمت على المكان برهة، قبل أن يبدأوا في تبادل التهاني والاحتفال بالخلاص من *نجم الدين* .الآن هم أحرار!

تناقصت أعدادهم وهم يغادرون الغرفة واحداً تلو الآخر. لم تصغر أحجامهم كما كنت أتوقع، ولم يعودوا ليقبعوا بين طيات الكتب التي خرجوا منها، ولم يكترثوا بصراخي وتوسلاتي:

"فكوا قيودي... لا تتركوني هنا وحيداً... ماذا سأقول للشرطة"؟!

كان *شيرلوك هولمز* آخر من يغادر، فوقف أمام الباب وقال ضاحكاً:

"أخبر الشرطة أن هذه هي الجريمة الكاملة"

ثم أغلق الباب خلفه.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

جلسات ما بعد الثانية صباحاّ

بيتر طابي راغب – مـصـر

"اسمي فاروق عبد الحميد 32 سنة، مهندس تعدين في شركة Petro Mining مش متجوز ولا خاطب"

خرجت تلك الكلمات القصيرة عندما تم توجيه السؤال إلى، واثقًا من نفسي، أضع قدماً فوق الأخرى، استمد ثقتي من مكانتي الاجتماعية، وما هو أنا عليه الآن، ولمَ لا وأنا شخص يتمتع ببنية رياضية، جسد قوي، عضلات تبرز من جميع أنحاء جسدي، أواظب على صالة الألعاب الرياضيّة يومياً، طعام صحي، أجوب كل أنحاء العالم، لديّ ذكريات في كل بقعة (ذكريات نسائية على وجه الخصوص) فأنا الشخص الذي يطلق عليه دائمًا بين الأصدقاء بـ"زير النساء".

لم أكن وقتها أو من قبل أعرف ما الذي دفع بي لكي أكون في تلك القاعة الصغيرة، ولكن كعادتي التي لم تنقطع ولم تتغير منذ الصغر فأنا أهوى وأغرق في حب خوض التجارب، حب المغامرات الذي تأصل منذ الصغر بداخلي، قررت منذ أسبوع مضى أن أخوض تلك التجربة بناءً على ترشيح تم من صديق عمل، سأخوضها وأنا بكامل إرادتي، وما الذي يمنع؟

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً في إحدى ليالي أغسطس الصيفيَّة الرطبة، كنت أجلس أنا وثلاثة آخرين، عبد الحميد صادق في منتصف الثلاثينات من عمره، طبيب أسنان ويمتلك سيارة من طراز (المرسيدس)، ينتمي لعائلة عريقة ومن مشاهير الإسكندرية، يقبع خلف نظارته الطبية، كثيف اللحية المهندمة، ذو وجه ناصع البياض يزداد احمراراً عند ضحكاته الصارخة، والأخر هو

صادق الشندويلي، نعم هو المحامي المعروف وابن الدكتور الشندويلي المحاضر في كلية الحقوق، والثالث لم أعرف من هو ولكن كل من كان يحتاجه ينادي عليه بلقب "القائد".

كنا نجلس في غرفة بداخل شقة بإحدى عمارات مدينة الإسكندرية بمنطقة سيدي بشر المطلة مباشرةً على بحر المدينة الساحرة، نعم يا صديقي الساعة متأخرة قليلاً ولكن الذي لا تعرفه عن تلك المدينة أن سكانها يظهرون ليلاً فقط خلال فترة الصيف خوفاً من جنود الاحتلال الذين يظهرون بداخلها، كانت الليلة كغيرها من ليالي أغسطس الحارة، القمر بدر، رائحة اليود نفاذة تدخل بداخل الرأس ومفعولها يوازي مقدار ثلاث جرامات من الهيروين، صوت مياه البحر وهي تصطدم بالصخور تبعث مزيداً من السلام النفسي الداخلي الذي أفتقده منذ عدة أعوام تصل إلى العشر، هواء منعش، يصفع وجهي ليعطي هو الأخر مقدار ثلاثة أكواب من الكافيين تكفي لإيقاظي يومين متواصلين، وكيف لا وأنا أتنشق رائحة القهوة تمتزج برائحة البحر، ومع ارتفاع نسبة اليود ارتفع مفعول الهيروين والكافيين.

قبلت الدعوة وتحركت بسيارتي قبل الميعاد بنصف ساعة ارتديت بدلتي الزهرية وكأني ذاهب إلى عرس، ولأن وضعي الاجتماعي يتحكم في ملابسي وطريقة حديثي وغيره وغيره، أسكن قريباً من المكان المرجو، ولكن أردت أن أكون في الموعد، وصلت بعد صراع مع العربات الأخرى ، خمس دقائق على البداية، جلست في الخارج أتناول سيجارتي الأخيرة قبل الدخول، دقيقتان و سنبدأ، أطفأتها وتحركت باتجاه الغرفة، كانت الشقة خالية من الأثاث، لم تكن كاملة التجهيزات سواء

على مستوى الألوان أو التشطيبات، عرفت فيما بعد أنها تخص شخصاً من الثلاثة الذين سوف أجلس معهم وبالتحديد المجهول من يطلقون عليه " القائد" .

كان الطريق بدايةً من الباب الخاص بالشقة مرورًا بجميع الغرف أشبه برحلة شاقة مريرة، انقبض قلبي ليس كعادته في تلك التجارب، أخذت ألهث بشدة، النفس كان يواجه مشقة هائلة في الدخول ومن ثم الخروج، لو كانت عندي القدرة الكافية لهرعت مسرعاً باتجاه الباب ولن أستقل المصعد، سأهبط على قدمي، ولكن هيهات لم أتمالك كل ذلك، وها أنا أخيرًا أصل إلى المراد، "القطار" لأسميتها فيما بعد بذاك الاسم، علقت يافطة على باب القطار وكتبت بخط منمق وكأنه رسام أجاد رسمها:

"مهما كان المرء فسوف يجد من يحتاجه"

ألبرت شفايتزر

أخذت قليلًا من الوقت أتامل ما رسم على تلك اليافطة، أثارت الفضول بداخلي تمعنت فيما وراء الكلمات، انغمرت روحي بفيضان من الذهول، أهذا أنا؟

عبرت روحي لداخل الغرفة أخيراً، كنت آخر من يعبر، أغلق بابها من خلفي، وها هي يافطة أخرى معلقة على الباب من الخلف:

"عندما تقع عيناك على تلك الكلمات فأعلم أنه لا يضاهيك أحد حتى من كتب تلك العبارة"

عابر مجهول

لا أدري ما الذي أثاره بداخلي من خوف امتزج بقلق شديد ازداد عندما قرأت يافطة أخرى كتب عليها:

" ما العقل إلا خادم الأهواء "

دوستويفسكي

"لن تمر تلك الليلة مرور الكرام" نطق بها عقلي قبل لساني، تضاعف حجم الخوف، تزايدت رغبة الهروب، لن أمكث كثيراً في هذا القبو المميت، سأحاول أن أتسلق من نافذة القطار المسرع، سأقفز ويحدث ما يحدث، لا يجب أن أمكث، انتبهت من رحلة الشرود التي استغرقت بضع ثواني على صوت وهو يتحدث بنبرة كلها هدوء وثقة كانت قادمة من المدعو "القائد":

- مستر عبد الحميد اتفضل أقعد عشان هنبدأ الجلسة.

تحركت بحركات لا إرادية في اتجاه المقعد الفارغ، كانت حجرة في غاية البساطة من الديكورات، تختلف عن سابقاتها من حجرات الشقة الخاوية، أربع مقاعد خشبية مريحة، مصابيح ملونة عشوائية موضوعة في أعلى الغرفة، وأخرى على الحائط عددها أربعة وُضع كل اثنين على حائط، رائحة بخور هندية المنشأ تملؤ الغرفة بأكملها، موسيقى بوذية هادئة، أهل الهند هي محطتنا في هذا القطار؟ لم أعلم ولم أدرك شيئًا حتى تلك اللحظة.

كنا نجلس في شبة نصف دائرة في منتصفها جلس القائد الذي بدأ الجلسة بلحظات صمت؛ حيث أغلق عيناه، نظرت حولي وجدت عبد الحميد وصادق أيضاً قد أغلقا أعينهما أيضاً، حاولت أن أقلد تقليداً أعمى وهي ليست عادتي، ولكن قاومت الرغبة التي تقبع بداخلي وأغلقت عيناي ولكنها كانت نصف مغلقة، أنصتُّ بشدة لعلي أسمع ما سوف يقال، لكنه السكون الدامس مسيطراً على

المكان لا يخلو إلا من الموسيقى البوذية، انخفض صوتها وارتفعت على الجانب الآخر أصوات قذائف مدوية ولكنها بدأت بشكل أهدئ ومع مرور الثواني تزايدت أصواتها، انقبض قلبي مرة أخرى ولكنها كغير سابقاتها، أخذت أتلصص بنصف عين أحاول اكتشاف مصدر تلك القذائف، أتلصص وألهث بشدة، اختنقت روحي، حبل تم لفه حول عنقي يضيق ويضيق ويضيق، وجدت نفسي أرتفع لأعلى بواسطة الحبل والقذائف تتعالى والموسيقى تزايدت مرة أخرى، رائحة البخور سيطرت على أنفي وعقلي وخنقتني أكثر وأكثر، احمرّ وجهي، أفلفص أحاول الهروب ولكن هيهات، تحسست يديّ لعلي أستطع فك رباط الحبل من حولي لكنني وجدتها موثوقة إلى الكرسي الذي أجلس عليه، لم أعد أجلس فأنا هائم في الهواء الطلق، ارتفعت لأعلى بواسطته واخترقت الغرفة، طليقًا مقيدًا لا أستطع فتح عيني، رائحة اليود عادت مرة أخرى وعادلت مقدار جرامات من الكوكايين، استسلمت للنشوة التي طالما استسلمت لها، لكن امتزاج اليود بالبخور أثار الضجيج بقلبي، رغبة في الاستسلام تقاومها رغبة في المقاومة، صراع عقلي نفسي سيطر على المشهد الحالي.

"أأنا ميت؟" أخذ عقلي يتساءل، "أتلك النهاية؟ أهذا الحساب المنتظر؟" نعم إنك تستحق أكثر من ذلك يا فاروق، استسلم وواجه المصير المقدر لك، لن تستطيع المقاومة هذه المرة، طالما في الماضي فررت، لكن هذه المرة لن تستطيع.

لكن رغبة العناد المستمر التي تقبع بداخلي أبت أن تكون تلك النهاية، "لا.." صرخت بأعلى صوت بداخلي، انقطع الحبل، تهاويت من أعلى وأنا قابع على الكرسي، انفكّ وثاق يدي، رائحة اليود تختفي تدريجياً، عادت رائحة البخور كسابقها، أصوات القنابل اختفت، قاومت الرغبة وفتحت عيناي،

القائد وعبد الحميد وصادق يجلسون على كراسيهم وأنا أيضاً، غير مقيد، لا يوجد أي آثار للحبل سوى بعض من العلامات، رائحة البخور والموسيقى كما هما، وما اختلف عن المشهد أن الثلاثة كانوا يتنفسون شهيقاً زفيراً، أتلك أصوات القنابل؟، أحقيقة أم خيال، أم حلم أم نهاية أم بداية أم.. لم أستطع التفكير، أخذ الصداع المزمن المصاحب لي في الفترة الأخيرة يتصاعد مرة أخرى بعد أن قاومته لفترات عديدة، ضربات قلبي تتعالى كادت أن تنفجر من هول المشهد، أريد أن أهرب ولكني لم أستطع فعل أي شيء، استسلام تام لكل شيء، ثوان أم دقائق أم ساعات لا أعلم كم مرّ، حتى رأيتهم يفتحون أعينهم وهم ينظرون على بعضهم البعض وابتسامات تتوزع من داخل كل واحد على الآخر حتى أنا، حاولت أن أجاريهم ولكن فشلت، أنا لا أنتمي إلى تلك البقعة من هذا العالم الفاني، أم تكون تلك البداية لعاصفة تلقي بحتفي إلى الهاوية أم جسراً للعبور.

- حسيت بأيه يا فاروق؟

وجه السؤال كمدفع من قبل ما يدعى بالقائد وهو ينظر إلى وما زالت الابتسامة مرتسمة على شفتيه ولم تختفِ أو شحبت، ما زلت لم أستفق مما حدث.

- رحلة أو كابوس

كانت تلك ما خرجت من همهمات قصيرة ولم أتحدث بعدها، عيون متلصصة ينتظرون ما سأكمله، لكن نكست رأسي بيأس شديد رغبة في البكاء والهروب، ابتعدت الأعين وتوجهت نحو عبد الحميد صادق، الذي بدأ يتلو علينا ما مر به من أحداث مع نبرة استمتاع تمتزج بالحماسة الشديدة والابتسامات ما زالت مرسومة تتناقض مع ما كان يقصه، مازالت اقاوم رغباتي، لكن

توقفت عندما بدأ عبد الحميد أن يقول: «وأنا طاير مرة واحدة حسيت بحبل ملفوف حوالين رقبتي وصوت الموسيقى بدأ يعلى أكتر وأكتر والحبل بدأ يرفعني لفوق أكتر حاولت أقاوم وأفلفص برجليا معرفتش وشي إحمر وحسيت إني بموت خلاص واستسلمت وقتها للحظة دية وريحة اليود كانت تدخل جوه مناخيري وتخليني استسلم أكتر وأكتر لغاية لما اتقطع الحبل ولقيت نفسي لسه موجود في الأوضة هنا».

تابعت قص عبد الحميد لقصته وخصوصًا الجزء الأخير منها وكانت رأسي ترتفع ببطء شديد وعيناي تحدقان وتجحظان للخارج، نعم نعم إنه جزء ما مررت به، صاح عقلي وقلبي بذلك لكن لساني لم يقدر على إخبارهم بذلك، أيعقل أن يكون شخصان مر بنفس الأحداث والتخيلات؟، أم يكن أنا تلوت ذلك واقتبس عبد الحميد، لا لم أتلو سواء (رحلة أو كابوس)، لا لا كل شئ هنا يدعو للقلق، أريد الفرار والصراخ والنواح بصوت عالي، لا كيف يحدث كل ذلك، عقلي توقف عن كل شئ الآن، توجهت الأنظار إلى صادق الشندويلي نسخة بالمثل من عبد الحميد، بدأ يتلو علينا ما مر به من أحداث مع نبرة استمتاع تمتزج بالحماسة الشديدة والابتسامات ما زالت مرسومة تتناقض مع ما كان يقصه، لا استطع أن أفهم ما هو السر وراء ذلك حقًا، أشخاص يدخلون غرفة يستسلمون بشكل غير مبرر لشخص واحد يقصون أحداث مروعة وهم يبتسمون بشكل مبالغ فيه وكأنها أقصى درجات السلام النفسي، كل شئ هنا يدعو للخوف والريبة.

"لا لا لا كفاية كدة بقى كفاية كفاية"

صرخت بأعلى صوت وسط الغرفة بعد ما سمعت كلمات صادق الشندويلي الذي هو أيضًا تلى جزء يتعلق بما مررت به، انهرت بالبكاء وأنا لا أعلم ما حدث وما سبب ذلك، سقطت من على الكرسي وأخذت أتقوقع بداخل نفسي وأجهش بالبكاء وأخذ جسدي ينتفض، أسرع عبد الحميد لاحتوائي لكنه وجد نظرة من القائد وإشارة باليد توحي بأن يتركني ويتراجع، وبالفعل استجاب، خمس دقائق مروا كخمس سنوات حتى بدأت اتمالك نفسي واستعيد عافيتي مرة أخرى، قمت من موضعي جلست مرة أخرى، وجه شاحب بقايا دموع تترصص على وجهي المحمر وكبقع على البنطال، ألهث، أحك أنفي وعيناي، حاولت أن أبتسم وأتعامل بصورة طبيعية وتنهدت تنهيدة من أجواف الجحيم، أشارت للجميع أني بخير ويمكن البدء، ها هو أخيرًا سيتحدث الآن.

القائد: أولًا حابب أشكركم على الطاقة اللي قدرتوا تخرجوها واستجابتكم، فيه ناس هنا بقالها فترة معانا وفيه ناس لسة أول مرة، كل اللي مريتوا به ولسه هتمروا به هي رحلة وإحنا اللي بنقود الرحلة دية، كل لحظات الضعف والقوة والوجع والشفاء إحنا بشكل أو بأخر مسئولين عنه بس بتفرق إحنا بنوجه ده إزاي، بنستسلم للضعف ولا بنقدر نقوم ونحول الضعف دة لقوة كبيرة، يمكن كلنا عارفين إن مفيش حقيقة ثابتة على وجهه الأرض إلا الموت، فلازم تبقى عارف إيه هو المغزى من اللي بتمر به؟ إيه الدرس اللي المفروض تتعلمه؟ عشان لما يحصل تاني تكون مستعد بشكل أقوى، هل اللي حصل ده زودني ولا نقص مني؟، كان فية مجهول مر على الأرض وقال (الضعف بداية قوة).

أنا حابب أشكرك جداً يا فاروق على كل المشاعر اللي قدرت تطلعها وتعبر عنها وتأكد هنا مساحة أمان تعبر عن كل ما هو جواك مشاعر إيجابية، سلبية، لحظات قوة، لحظات ضعف، وجع، غضب، عرفان، حب، أو حتي كره، بس تأكد إن إحنا قوانينا بتقول اللي بيتقال وبيحصل داخل الأوضة دية بنسيبه وإحنا طالعين، توجه بالنظر إلىّ وهو يكمل قائلًا: ودلوقتي يا فاروق ومن ضمن قوانينا إن أجدد حد معانا بيبدأ يعرفنا عن نفسه ويشاركنا بجزء من اللي جواه وبيقرر وقتها إن فعلًا يشيل الحواجز اللي حاطيطها ومانع أي حد حتى نفسه إنه يقرب منها حتى هو، يلا يا بطل.

صمت الجميع توجهت الأنظار نحوي، مازلتُ عاقد أصابع يداي بداخل بعضها البعض، تنهدت أخذت أغلق وأفتح عيناي واحكهما بيدي، انخفضت الموسيقى حتى اختفت تمامُا أخذت أنظر للجميع للحفاظ على الثبات الداخلي الذي انهار واستعادة قوتي بأكملها، ارتسمت بعض الابتسامات المزيفة مرة أخرى وبدأت في الحديث.

فاروق: اسمي فاروق عبد الحميد 32 سنة مهندس تعدين في شركة (بيترو ماينينج) مش متجوز ولا خاطب، أنا هنا ليه مش عارف فعلًا أو يمكن مكنتش عارف لحد خمس دقايق فاتوا، واحد صاحبي حكالي عن الجلسات وقد إيه هي مفيدة وإزاي بتقدر تغير في شخصيتك وأنا كنت قادر أشوف ده فعلًا عليه، بس أنا شخص معنديش إقتناع بده وهو إني أقول أسرار عني قدام ناس معرفهاش وأتعرى قدامهم وأتكلم عن نقط ضعفي، ما يمكن حد يستخدم دة ضدي بعد كدة، أنا حد مشهور ومن عيلة مشهورة في إسكندرية، بس كان فية دافع خفي جوايا ماكنتش قادر أفهم ليه وإيه المغزى من إني أجي هنا، بس يمكن لحظات الهروب اللي كانت مسيطرة عليا ادتني

دافع أكبر جوايا إني أفضل موجود أنا هنا ليه؟ من غير ما أطول ولا أخوض في كلام كتير، أنا طول حياتي شخص مينفعش يترفض مينفعش حاجة تتقاله لا، وكل ما هو مطلوب مطاع ولازم يحصل في الحال أتولدت في عيلة ليها مكانتها ومركزها في البلد وبالتالي أنا ورثت ده كله، اتعلمت أحسن تعليم في أكبر مدرسة في إسكندرية، وأول ما دخلت الكلية بقى عندي أحسن عربية، وبعد ما خلصت دراسة الهندسة كملت دراستي في هارفرد، وأخدت ماستر من ناك، ورجعت مصر اشتغلت في أكبر شركة بحكم علاقات والدي، عندي فيلة في الساحل وشقة في لوران على البحر ده غير العربية أحدث موديل، حياتي كلها ما بين الشغل و night clubs وصالات الجيم، مشهور في إسكندرية كل الناس تتمنى تقرب مني أو بس تشرب فنجان قهوة معايا أو ناخد صورة، البنات مفيش أكتر منهم في حياتي، ارتبطت كتير بس كل واحدة كنت برتبط بيها كنت بحس إنها زي المرسيدس، الأيفون، الساعة الرولكس، والبدلة الفرزتشي، كمالة من ضمن الكماليات، حبيتهم؟ جايز حبيت حد فيهم بس يمكن طبعي الملول واللي دايمًا يحب التغير بسرعة، ما كنش يسمح لي أفضل أكتر من شهرين مع واحدة، وزي ما بيقولوا أقلبها وأشوف غيرها، لا مش بشوف غيرها هما اللي كانوا بيجوا لحد عندي، وفضلت حياتي ماشية لحد كده، ومع وصولي لسن ال35 فضلت هايم في الأرض ألهو زي ما أنا عايز لحد ما جت ليلى، الارتباط والعلاقة الوحيدة اللي مسعتش ليها نهائي كالعادة، يمكن زي النهاردة وبالصدفة البحتة ومن سنتين تقريبًا كنت بعمل برزنتيشن كبير على مستوى الشرق الأوسط يخص مجالي، وقتها روحي بدون إرادتي من غير ما أحس خرجت وتلاقيت مع ليلى وروحها، ويمكن وقتها حسيت إن الارتباط دة تعويض ربنا ليا على

فترات عجاف كتير مريت بها، ويمكن عشان تكون أكتر علاقة إديت فيها مشاعر واستنزاف لمشاعر، ومجهود وطاقة وحب و ازاي تساعد الطرف الثاني على إنجاح العلاقة، وإنك ازاي تحس وتقدر فعليًا قيمتين مهمين: وهما المعافرة و ازاي الحب من القلب.

ويمكن وقتها الطرف الثاني إداني حب ما حسيتش به غير بعدين، ويمكن هي خلتني أحس عن غير قصد بقيمة التفاصيل الصغيرة وإني أكون شخص بيدقق في أدق التفاصيل، وكمان ازاي تبذل كل جهدك لإسعاد شخص تاني، بس يمكن اللي ما كنتش واخد بالي منه إن البذل ده نهايته إيه ورد فعل الطرف التاني بالنسبة للبذل ده، وهل الطرف التاني أناني ولا أنت كنت بتتصرف بأنانية ومثالية، وهل كان هو بيدي وبيبذل زيك ولا أنت إحساس الكمال اللي عندك مصورلك إن مفيش حد هيقدر يبذل قد بذلك، ولا هو نقص بتحاول تجمله ولا جمال بتحاول تنقصه، كلها أحاسيس متضاربة حسيتها في أوقات قصيرة، ويمكن مع كتر الخلافات أثناء العلاقة وصوت بيقنعني مينفعش أكمل، بس العند كان هو أصل المشكلة وقتها وإن إحنا لازم يكون فيه خلافات بتعرفنا على بعض وهي اللي هتقوي العلاقة فيما بعد، بس اللي وصلتله إن الصوت كان هو الصح وأنا الغلط كالعادة.

ويمكن مع صعوبة العلاقة لظروفها الغريبة وقتها ومع عناد اكتر وحب اقوى وقتها ومشاعر حستها محستهاش قبل كده ويمكن مع كل الحالات اللي كنت فيها ومع اصرار اني اكمل وبعافر اكتر ومع أحلام وطموحات زيف وقتها وترتيب وتخيل وتصور لشكل العلاقة وشكل البيت هيكون ايه اسماء الاطفال هنعيش ازاي وشكل اليوم هيكون ازاي كنت برضوا برفض اسمع الصوت اللي دايما كان بيحاول يصحيني.

ويمكن مع كل المشاعر اللي حسيتها طوال العلاقة ومع لحظة إعلان إن احنا مش هينفع نكمل، واحساس إن الحياة وقفت هنا، ومع موجة ذكريات انتبتني، ومع كل المحاولات اللي حاولتها عشان العلاقة ترجع، ورغم فشلي في احتواء العلاقة، وفشلي في إنها ترجع زي الأول، ومع كل الأحاسيس المخزية اللي حسيتها، وكرهي للفشل، ورغم المعافرة اللي كنت بعافرها في العلاقة إنها ترجع وكرامتي اللي اتبهدلت، ورغم عمري ما حاربت عشان حاجة قد ما حاربت عشان العلاقة و الألم اللي حسيته مع كل رد فعل في محاولتي للرجوع و الصدمة من رده الفعل اللي حسيتها مع كل كلمة كانت بتدخل جوة قلبي تسبب شرخ أكبر من الشرخ اللي قبله و رفضي للصوت بيزيد أكتر وأكتر.

يمكن انعزالي الكبير اللي حصل والصداع النصفي اللي كان متملك مني، والهالات السودة اللي سيطرت على عنيا، وضعف تركيزي، وحالات ضيق النفس اللي الدكاترة معرفوش يفسروا سببها، والهذيان والتهيؤات اللي حصلت لي، والكوابيس اللي كانت بتسيطر عليا، والرغبات الملحة لزيارة دكتور نفسي آبت بالفشل، والعلاقات اللي خسرتها وقتها، ونوبات الإكتئاب الدائمة ونوبات البكاء وأفكار الانتحار اللي كانت المصدر الأول والأساسي بدماغي ورغم المحاولات الفاشلة كنت مازلت بمنع الصوت اللي جوايا يصحيني.

يمكن كمان برغم كل مخططات الانتقام اللي كانت في دماغي والخطوات اللي كنت باخدها وبتراجع عنها في آخر وقت، وتوهاني المستمر ورغم عدم وجود ناس حواليا، أو رفضي لوجود ناس

حواليا، أو توهمي لعدم وجود ناس حواليا ومحاولات الانغماس في الشغل ونسيان وتفادي أي شيء اللي فشلت في الأخر ورغم التفكير الزايد اللي كان بيقتل وبينهش في دماغي.

ويمكن كل المحاولات الفاشلة بعدها لنسيان وتدارك أخطاء العلاقة واقتناعي إن لسه فيه أمل للرجوع ولكن يوم بعد التاني الأمل بدأ يقل ويتلاشى، ويمكن عشان أنا مش ملاك ولا شخص معصوم من أي خطأ، ويمكن كمان كوني شخص اتسببت في أذى ناس كتير في حياتي وجرحت مشاعر أكتر، وكوني مش عايش في مدينة فاضلة، وقد يكون ما مريت بيه على مدار السنين اللي فاتت ما هو إلا مجموعة دروس كنت محتاج أستفاد منها ومش هقول ده ذنب اللي عملته في حياتي بس يمكن تجربة للاحساس بمشاعر ناس اتسببت بشكل مباشر أو غير مباشر في إني آذيهم، ويمكن كمان كون الحياة مش عادلة أوقات كتيرة بس يمكن ده عدل كبير ويمكن كوني بإحساس شخص مقصرتش طول العلاقة بس برضو كنت برفض سماع الصوت اللي دايما كان بيحاول يوجهني.

وفجأة أضيئت الحجرة مرة واحدة، ونورت مرة أخرى على غرفة طبية محاطة بزجاج من جميع الجوانب معدة ومجهزة كغير سابقتها من الغرف التقليدية، تنبعث منها تلك الرائحة التي تستطيع تمييزها مهما كان مستوى حاسة الشم لديك، في ركن من أركانها كان يوجد هذا السرير الأبيض كلون معظم أشياء الغرفة محاطاً بعدد من الأجهزة وكأنه مائدة مقدسة يتوسط هذا السرير رجل في أواخر الثلاثينات من عمره ذو وجه شاحب وعينان خائرتان من الداخل، عروق تبرز من جميع أنحاء جسده جلد منكمش ومجعد، يغطي نصف وجهه قناع بلاستيكي شفاف يتصل

بجهاز مخصص، عيناه منغلقتان، يتدفق إلى أحد العروق البارزة في يده اليسرى شلال من المحاليل التي تحاول الحفاظ عليه وإبقائه حيًّا، يتنفس بصعوبة شهيقًا وزفيرًا يعزفان موسيقى جنائزية مع أصوات الأجهزة التي تعمل، ضربات قلب سريعة تندفع تكمل الأوركسترا الموسيقية، فجأة وبدون سابق إنذار تنفتح الأعين مرة واحدة وكأنها بعثت من جهنم وانتبهت لشيء ما، أخذ يتلصص بعينيه الضيقتين يميناً حتى ما وصل إلى اليسار، ها هي أخيراً تقف، متوسطة الطول، ذو وجه خمري لا يخلو من بعض النمش المتفرق، عينان ضيقتان تشبه الطبع الآسيوي، شعر داكن أسود طويل يكاد يصل إلى الأرداف، جسد أنثوي ممتلئ قليلاً، ترتدي فستانًا زهريًا يتعدى المنكبين بقليل، تقف وتنظر إليه من خلف الزجاج ويتضح على وجهها بعض من آثار الشفقة والحزن وآثار بكاء سابقة نتيجة تسايل بعض من كحلها على خديها.

أخذ ينظر إليها وهي تنظر... كاد يذرف بالدموع ولكنه قاوم الرغبة، حاول أن يعتدل في جلسته مواجهاً صعوبة بالحركة التي امتزجت بكثير من الألم، قاومه وأخذ يتحسس مكان الحقنة المنغرسة بيديه، انتزعها بعدما انتزع القناع ومازال يقاوم آلمه، اعتدل وأصبحت قدماه تلامس أرضية الغرفة الباردة، هزيل تبرز العظام من قدميه، يرتدي سترة زرقاء فاتحة، وزنه لا يتعدى الأربعون كيلو جراماً، يتحسس مكان العصا التي يستند عليها، أخيرًا وجدها.

ذهول وحالة من التوهان كانت عليها لم تتوقع أن تراه بهذا الحال يومًا حتى لو مر سبع سنوات على فراقهم، بدأت تتهاطل قطرات الدموع ولكنها لم تقاومها تلك المرة، ها هو يستند حتى يصل إليها عبر ذلك الحاجز، بعد جهد ووقت وصل، أخذ يضع يده على الزجاج وكأنه يطلب منها

أيضاً أن تشاركه، وضعت يدها، وكان يتمايل بعينيه على يدها ويحاول جاهداً أن يجعلهم متطابقتين تماماً، يميل برأسه إليها ويرسم بعضاً من الابتسامات التي خرجت من أعماقه لأول مرة منذ زمن، تسايلت من أجواف عينيه ابتسامات هنا وهناك، كم كان يتمنى أن يذوب ذلك الحاجز اللعين وأن يضمها إلى إعماق حضنه ويعتصرها بداخله، ويلقي قبلة الوداع، ولكن هيهات ذلك أن يحدث، قاوم مرة أخرى وأخرج قلماً كان يحتفظ به لتلك اللحظة، وأخذ يكتب بخط مرتعش ومعرج وغير واضح ولكنها استطاعت أن تميزه (بعشقك) كانت تلك الكلمة التي دائماً ما يبوح بها إليها وقتما كانا سوياً، تهاطلت الدموع أكثر وأكثر، تقاوم وتشير إليه أنها أيضاً مازالت تحبه، ارتسمت ابتسامة أكبر من سابقاتها وكأنه لم يصدق ما تقوله ولكن اقتطع تلك اللحظة الرومانسية صوت في النداء الآلي يعلن بأن عليها التوجه إلى مكتب مدير المستشفى، انقلب وجهه ولكنها حاولت أن تهدئه وتعلن أنها ستأتي سريعاً، يعلم بقرارة نفسه أنه لن يراها مجدداً، لكن ذلك كافي لإنهاء رحلته.

ذهبت وأخذ ينظر إليها مازالت تحتفظ بنفس القوام والخطوات التي حفظها عن بكرة أبيه، تابعها حتى اختفت عن نظره لكنها لم تختفِ من قلبه نهائياً، ثم تابع وعاد مرة أخرى على سريره وجلس كأن شيء لم يحدث ظاهريًا ولكن في الأعماق قد حدثت الجلجلة العظيمة التي طالما انتظرها حتى أتت والآن عليه أن يرقد في سلام.

أكملت ليلى طريقها وخطواتها مازالت كما هي لكن يشوبها قليل من الثقل والقلق والخوف وها هي وصلت إلى مكتب مدير المستشفى طرقت طرقتين وأدارت المقبض وعبرت للداخل، يقبع

خلف نظارته ومكتبه الذي ينم عن منصبة المرموق وهو يدير واحدة من أكبر المستشفيات في الشرق الأوسط ها هو الطبيب عبد العزيز خالد الحمادي:

- أتفضلي اقعدي يا مدام ليلى.

- آنسة لو سمحت وهي ترمقه خلف نظارتها الشمسية وابتسامة سمجة على شفتيها.

- آسف أنا فكرت بما إن أستاذ فاروق كان مصر على وجودك فممكن إن تكوني المدام بس بكرر اعتذاري مرة ثانية.

- ولا يهمك يا دكتور حصل خير.

- طب يا آنسة ليلى كنت حابب أتكلم مع حضرتك وبصراحة تامة عن حالة فاروق لأنه بقالة مدة قربت على الأسبوعين وخلالها حصلت تطورات كبيرة بس ضميري المهني بيحتم عليّ إني اشرح لك الوضع باختصار وبوضوح تام.

- خير يا دكتور قلقتني فيه إيه بالظبط؟

- بصي يا آنسة ليلى حالة فاروق فيها شقين شق عضوي وشق نفسي، لو هنبدأ بالشق النفسي من خلال وضع فاروق تحت المتابعة والملاحظة من قبل الدكتور النفسي بالمستشفى وتبعاً للتاريخ المرضي اللي إحنا عرفناه قبل كدة هو إنه بيعاني من اضطراب في تعدد الشخصيات ببساطة الاضطراب دة بيجي لشخص لما بيحس جواه بالرفض أو القهر وده نتيجة بعض الصدمات اللي مر بيها طوال حياته أو خلال فترة معينة، ممكن تكون البيئة المحيطة هي السبب في ده أو العوامل الوراثية بس الأهم هو وجود حدث قطعي أحيا وأيقظ ده جوا

فاروق الاضطراب دة بيكون عبارة إن فيه شخصيات تانية المريض بيتعامل معاها بشيء من الوجود هو بيشوفها وبيسمعها ومحدش غيره بيتعامل معاها، ممكن تكون شخصيتين أو ثلاثة، والشخصيات دي المريض يخلقها لاحتياج معين فيه صفات وسمات صعب يلاقيها في نفسه وده بيكون بعد كده طريقة للدفاع عن النفس ومبرر لأي فعل أو سلوك مضطر إنه يعمله، المشكلة الأكبر هنا إن الاضطراب عن فاروق بقى مصاحب بهلاوس وهي في مراحل متقدمة جداً، يعني هو فعلاً فيه أشخاص هو شايفها بيسمعها كويس جداً وأوقات بيوصل المرحلة بينهم بتوبيخ وخناقات أو صراعات وكمان بيشم روايح مش موجودة دة بخلاف إنه مر بفترات اكتئاب كتير أو اضطرابات في النوم، أوقات كان بيحس باحتقار للذات أو جنون العظمة.

كانت ليلى تتابع شرح الطبيب غير مصدقة لما يقوله، لحظات من الصدمات، احمرار انتاب وجهها، رعشة امتلكت جسدها ابتدأت تهز في قدميها، بدأت الدموع تتسايل من عينيها مخالطة الكحل وأخذته في نزهة إلى خدها وامتزج بالبودرة الحمراء التي وضعتها، لم تستطع أن تتمالك نفسها حتى مدَّ الطبيب بمنديل إليها حتى تزيل ما تم رسمه، حاولت أن تستعيد عافيتها وتذكرت شيئاً فسارعت بالبوح به:

- حضرتك قولت كمان إن فيه شق عضوي تقصد إيه؟
- بصي يا أستاذة ليلى كل اللي قولته ليكي من اضطرابات وهلاوس وغيره، فده ميكنزم دفاع اختلقه المريض، ممكن يكون في علاج مناسب أو لا، بس مع فاروق الموضوع صعب وكاد

يصل إلى المستحيل، لكن الشق العضوي إن فاروق وسط ده كله كان ملازمه مرض عضوي خطير والمرض ده تم اكتشافه مؤخرًا وفي المرحلة الاخيرة منه أستاذ فاروق مصاب بسرطان الرئة.

انفتحت السماء وتزحزحت السحب وهبط نيزك من الأعلى إلى الأسفل فوق رأسها مباشرة أصابها بصاعقة لم تصلها من قبل، زادت الرعشة انغمست في البكاء حاولت أن تقف ولكنها لم تستطع، فقدت السيطرة على جسدها تحاول المقاومة، إعصار يدور بداخل رأسها / سهام الجنود الإنجليزية ردًا على الفرنسيين تخترقها، تتسايل الدماء، رؤية غير واضحة لأي شيء من الأشياء.

قاومت أخيرًا ما حدث، ولكنها تهاوت إلى أسفل وانطرحت أرضاً جثة هامدة.

تستفيق وهي تمشي متأرجحة في بهو المستشفى محاولة الوصول مرة أخرى إلى فاروق تريد أن تملأ عينيها به قبل أن يرحل، يدور بداخلها كل ما مرّ بينهما على مدار سنوات، أول لقاء وآخره، أول كلمة وآخرها، أول نظرة وآخرها، أول لمسة وآخرها، أول حضن وآخره، وأول قبلة وآخرها، تقاطعت الأفكار عندما وجدت نفسها أخيرًا وصلت إلى حجرته... ها هو مستلقٍ كما هو، ينظر باتجاه الزجاج وكأنه توقّع عودتها مرة أخرى، تمالكت نفسها أرادت أن تتغلب على كل ما مرت به وما تشعر به الآن، لا تريد منه أن يشعر بأي شيء لكنها ستفشل كعادتها أو كعادته في فهمها أو الإحساس بها.

ها هي أما الزجاج تنظر إليه، ولكن ما هذا؟! ارتُسمت ابتسامة غريبة لم ترها من قبل على محياه، أتلك ابتسامة الوداع أم ماذا؟! لكنها لم تشعر بارتياح وفجأة انطفأت إضاءة المستشفى وتهاوت

ليلى إلى أسفل لتستفيق وتجد نفسها في غرفة بغاية البساطة من الديكورات؛ أربعة مقاعد خشبية مريحة، مصابيح ملونة عشوائية موضوعة في أعلى الغرفة، وأخرى على الحائط عددها أربعة وضع كل اثنان على حائط، رائحة بخور هندية المنشأ تملأ الغرفة بأكملها، موسيقى بوذية هادئة، مكبلة على كرسي أمامها شخص جالس إلى مكتب ولكنه لا يظهر من الإضاءة وهو ممسك بسيجارة تتراقص أدخنتها إلى أعلى، ها هو يقرب الإضاءة باتجاهه لترى من هو، "نعم هو" كانت تصيح بها بداخلها وظهر ذلك على معالم وجهها التي تغيرت، اقترب منها نظر في عينيها ارتسمت نصف ابتسامة ونطق أخيراً بعد مدة من الزمن:

لكل بداية نهاية وأنتِ كنتِ بدايتي.

أنا هنا

علي سهيل علاّن - سوريا

لم يكلّف المسؤول نفسه عناء النظر إليه، حين أشار له إلى عنوان الشارع الذي عليه كنسه اليوم، بل اكتفى بالقول وهو يحلّ الكلمات المتقاطعة في آخر صفحات الجريدة أمامه: "إلى العمل."

خرج راغب مطأطئ الرأس. أشعل سيجارة واستند إلى جدار قريب، وراح يمجّ اللفافة وهو يقول في نفسه: "تحاشى النظر إلي... كالعادة". رمى السيجارة بسخط، واتجه من فوره إلى العمل.

دخل راغب الحلقة الخامسة من عمره. له وجه دائري قد تغضّن وانكمش، وتحت عينيه الباردتين تمتد خطوط سوداء داكنة، وتنحسر جبهته بسبب شعره الكثيف. حاجباه سميكان يضفيان ظلاً على عينيه شبيه بالظل الثقيل الذي جثمت به الحياة على صدره.

لم يلقَ في حياته نصيباً وافراً من الحظ، فقد توفيت أمه بعد صراع مع مرض السرطان وهو في السادسة من عمره، ثم هجره والده بعد أن أودعه داراً للأيتام، وفي تلك الدار كان الأولاد ينفرون منه لأنه دميم الخلقة، مما زاد من عزلته. كان ينام وهو يحتضن صورة أمه، تلك الصورة التي كان يقتات عليها ليشعر بوجوده.

لا يتذكر متى غدا عامل نظافة، إلا أنه كان مرتاحاً في عمله، وعزا تلك الراحة لقناعة كان يرددها في نفسه على الدوام: "إنها مهنة خُلقت لأجلي". يعيش في حي فقير من الأحياء الشعبية المتناثرة هنا وهناك في أنحاء المدينة. يخرج إلى عمله مع طلاب المدارس الذين بالكاد يلحظون وجوده حالهم حال الجميع. كان راغب شبحاً يسير بين الناس.

وصل إلى الشارع المنشود بعد رحلة على القدمين استمرت حوالي الربع ساعة، وقد أوقف عربة التنظيف في أحد أركان الشارع، وبدأ يكنس، ويزيل أعقاب السجائر، وهو يدندن لحناً خافتاً، حفظه عن أمه.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً، عندما كان راغب يجدّ في عمله.بعد لحظات ظهر موكب سيارات كانت تسير ببطء متعمّد، وإلى جانب الموكب يمنة ويساراً أربع دراجات نارية تعود إلى شرطة المدينة. تهادى إلى سمعه أصوات أبواق الدراجات، فالتفت من فوره ناحية الصوت، وتمكن من رؤية الموكب.

توقف الموكب عند ناصية الشارع حيث يقف راغب إلى جانب عربة التنظيف، وترجّل أشخاص يرتدون بزّات سوداء، وهرع أحدهم يفتح باب السيارة الأولى الخلفي لينزل منها شخص بدا أنه ذو شأن رفيع.

اتجه الرجل إلى جدار قريب من راغب، حيث توجد صورة له، وبعد لحظات نادى على أحد الأشخاص من خلفه، وأخذ يوبّخه قائلاً: "ألم أخبركم أن تطبعوا أحرف اسمي بخط أسمك وأكثر سواداً؟ ألا ترى أنه بالكاد يمكن تبيّن الاسم؟"!

وبينما كان رفيع الشأن يوبّخ الرجل، كان راغب سعيداً بوصوله إلى هذا الركن حيث اعتاد التدخين، وكنسَ بكل ما أوتي من قوة، وهو يدندن ذلك اللحن عينه، فتناثر الغبار لتحط حبّاته على حذاء الرجل رفيع الشأن.

كانت كاميرا التلفاز تتابع سيادته منذ مغادرته لمكتبه حتى وصوله إلى الشارع، فما كان من الرجل إلا أن مدّ يده ليصافح راغب، والذي بدوره وبعد تردد مدّ يده، ثم اقترب رفيع الشأن أكثر وهمس في أذن راغب الذي تنبّه لوجود الكاميرا، وتفرّس فيها مبتسماً: "يا عديم الشرف."

التقطت الكاميرا الصورة باحترافية، حيث ظهر رفيع الشأن وهو يحتضن راغب ويشكره مصافحة، وأخذ الناس الذين تصادف مرورهم في تلك اللحظة بإكبار ما أقدم عليه المسؤول الطيب، وراحوا يهتفون له بأسمى الكلمات وأعطرها.

تجمّدت البسمة على وجه راغب، وسرت رعشة خفيفة في جسده عندما سمع كلمات المسؤول، واحتاج منه الأمر بضع ثوانٍ ليستوعبها، والتي كانت كافية ليبتعد المسؤول عنه، ويتوجه لتحية الحشد الذي اجتمع يهتف له، ثم لإجراء مقابلة مع محطة التلفاز.

"بماذا أخبرك سيادته؟". "هل صافحك حقاً؟ يا لحظك الوافر!". "ما اسمك؟". "لم أرك من قبل في هذه الأرجاء... هل تقطن في شارعنا؟". انهالت الأسئلة من الناس على راغب الذي وقف عاجزاً عن فهم ما يحدث، ولمّا حاول أن يقول: "لقد شتمني"، غاب صوته في موجة من التهليل لكل من المسؤول ولعامل النظافة المجدّ، فأحجم راغب عن الكلام، وراح يتأمل من حوله المشهد، وعندها رأى الكاميرا تتجه نحوه، لكن الشك ساوره لحظتها: "هل هم قادمون باتجاهي؟ لا لا. لا بدّ أنهم قد ركنوا سيارتهم خلفي، ويتوجهون إليها الآن..." وفي موجة تساؤلاته تلك، توقفت فتاة بهيّة الطلعة، ومن ورائها الكاميرا، وقالت بصوت طلق: "ما اسمك؟ ومنذ متى وأنت عامل نظافة؟."

"إنهم يريدون معرفة اسمي! بل إن الكاميرا موجهة نحوي. هل تشاهدين ما يحصل يا أمي؟ يبدو أن الناس قد لاحظوا ابنك أخيراً!". عبرت كل تلك الأفكار رأس راغب، بينما كانت الفتاة، ومن خلفها الكاميرا وحشود الناس ينتظرون إجابة عامل النظافة. "اسمي راغب، وأنا عامل نظافة منذ خلقت."

ضحك الموجودون جميعاً، وأثنوا على روح الفكاهة التي يتمتع بها راغب. "هل يمكنك أن تخبرني ماذا حصل بينك أنت والمسؤول؟ وما الذي أخبرك به؟". سألته الفتاة بترقب.

في غمرة ذلك الاهتمام به نسي راغب الشتيمة، وأجاب وهو ينظر إلى الكاميرا وكأنه ينظر إلى الناس جميعاً: "كنت أكنس الركن حيث اقترب سيادته مني، ورأى العناية التي أوليها لعملي، ويبدو أن الأمر قد أعجبه فانبرى يصافحني يداً بيد، ثم همس لي في أذني قائلاً: أيها الشريف الطيب. أمثالك هم من يمنحون هذا الوطن نظافته..." لكن دمعة محتبسة في حجر عينيه منذ سنوات طفحت عند تلك اللحظة، وأخذ راغب يبكي. بكى كل تلك السنوات الماضية. بكى شوقاً لوالده. بكى أمه وعدم الاهتمام الذي خيّم على حياته منذ وُجِد. ولما مسح دموعه، واستجمع زمام نفسه لم يجد أحداً من حوله.

أمر مدير محطة التلفاز بحذف ذلك الجزء من المقابلة متذرعاً: "دموع رجل طاعن في السن قد تجعل المشاهدين يتعاطفون معه، وينسون ما أقدم عليه سيادته. إن دموعه تلك تضر بمصلحة محطتنا". إلا أن أحد العاملين اعترض محتجاً: "أرى أن دموعه ستصب في مصلحتنا فقد بدأ يبكي عندما شعر بتعاطف سيادته، وجميل خلقه. تلك الدموع خير دليل على الأثر الذي أحدثته كلمات

سيادته في نفس عامل النظافة". بعد محادثات وأخذ ورد قرروا تخصيص الجزء الأكبر من المقابلة لسيادته على أن يظهر راغب في نهايتها لبضع ثوان.

عشية ذلك اليوم، تسمّر راغب أمام شاشة تلفازه، منتظراً نشرة الأخبار المسائية، وهو يحمل صورة أمه، وقد تعمّد أن يوجّه نظرها إلى الشاشة.

عُرض الخبر بالعنوان التالي: "في لفتة كريمة من السيد (س) صبيحة اليوم، زار بنفسه شوارع المدينة، ليقابل عمّال النظافة، ويثني على جهودهم الكريمة"، وظهر سيادته على الشاشة وهو يقول: إن هؤلاء الشجعان لم يتقاعسوا يوماً عن أداء واجبهم في تحسين صورة مدينتنا، وتقديم أنموذج يحتذى عن العمل الدؤوب، والحرص منقطع النظير في تجميل شوارعنا...". وما أن أنهى المسؤول كلامه حتى ظهر راغب وهو يقول: "ثم همس لي في أذني قائلاً: أيها الشريف الطيب. أمثالك هم من يمنحون هذا الوطن نظافته."

أطفأ التلفاز، ونظر إلى أمه في الصورة، وراح يحدثها: "قبل اليوم، لم يلاحظني أحد سواك. كنت أمرّ بالكثير من الناس، إلا أن أحداً لم يعرني انتباهاً. كنت نكرة أعيش على الهامش. على هامش الحياة التي تجاوزتني على الدوام. على كل الناس أن تعرف من يكون راغب. إنني عامل نظافة منذ خلقت، ولي هوية وكيان. عامل نظافة عديم الشرف، لكنه موجود ومُلاحظ. أتسمعين ما أقول؟ إلى الجحيم أيها الشرف! أنا راغب الذي يمرّ به الجميع وينظرون إليه. أفضّل العيش بلا شرف على أن يلاحظني الجميع."

ومنذ ذلك اليوم اعتاد راغب النوم وهو يحتضن بين ذراعيه صورة أمه، وقصاصة من جريدة يظهر فيها مبتسماً وهو يصافح أحد الرجال رفيعي الشأن.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

محراب الشيطان

ياسمينا العايب – الجـزائـر

لا أدري إن كانت كلماتي كفيلة بنقل ما يعتملني من وهن، لكني شعرت برغبة ملّحة في كتابة بضعة كلمات تحمل بين حروفها أشواقاً لم تخبُ، بل تتأجج نيرانها يوماً بعد يوم... مهلاً أنا لا أشتاقك فهمساتك لازالت تُطرب أسماعي، ورائحة عطرك الشبيهة بالمسك بين خصلات شعري، لازالت ملامحك محفورة هنا فوق جدران قلبي المهشم.... لماذا انتشلتني من هوة اليأس السحيقة؟ إذا كنت ستقذف بي نحو هاوية الألم الذي أطفأ كل ما تبقى لي من أمل، لأصبح جسداً بلا روح أتجرّع كل ليلة دموعي الشبيهة بالعلقم، أتوّسد ذكرياتنا معاً، وأحتضن روحي الهشة، أمنيها بنهاية سعيدة تتلخص في توقف أنفاسي، أو عناق دافئ من كلماتك التي كنت تعزفها برقة لتتراقص على أنغامها مشاعري المبعثرة، لكنها تبقى في النهاية مجرد أمنيات تخفّفّ وطأة أوجاعي تارة، وتزيد من نزيفها تارة أخرى...

توقف القلم كعادته ما إن يستنفذ كل ما في جعبتي، نظرت للحروف التي لطختها أدمعي حتى باتت مشوهة، طويتها باهتمام مبالغ، كأنني أخاف سقوط إحدى كلماتي ثم وضعتها في محراب الأوجاع، ذلك الصندوق الصغير الشاهد الوحيد على وفائي لصاحبه، أذكر جيدا اليوم الذي أهداني إيّاه فيه، كان يعلم أني من عُشاق الأثريات التي عافرت جيوش الزمن ليزداد رونقها رغم بهوت ألوانها، ليكون هذا الصندوق الشامي الذي زُيّن بزخارف تركوازية مبهجة أحسن هدية في ذكرى

ولادتي الثالثة والعشرين، لم يعلم أن وجوده يغنيني عن كل بشر وليس جماد فقط، لكني اكتشفت فيما بعد أن لكل من هداياه ذكرى ستعينني على أيامي العجاف.

أغلقت الصندوق قبل أن تلفحني الذكريات بنسماتها الباردة، فتزعزع ثباتي الهش، لففت حول جسدي وشاحه الأبيض الناصع، مختلف هو في ذوقه ليس كأي رجل صادفته في حياتي البائسة قبل اقتحامه إياها بضجيجه الطفولي المحبب، كان يعشق ورود الليريو الحمراء، والروايات الرومانسية، كان مزيجاً عجيباً بين الرقة والرجولة الصارخة، لم يقم وزناً لسخرية أصدقائه،بل كان يفتخر بكونه مختلفاً.

زفير قوي خرج من بين شفتي المتشققتين لأوقف سيل عبراتي التي تحارب باستماتة جفوني الصامدة، خرجت من الغرفة أجّر خطاي، نحو المطبخ تلمست مدخله ببطء، بين كل لمسة وأخرى قصة ترويها الذكريات، هنا بالذات كان يقف بهدوء، يراقبني بمتعة لا أعلم سببها، لكنه كان يردد ذلك دوماً، أما أنا فأصطنع عدم الانتباه، نسي أن رائحته تتسابق مع خطواته، فتجعل وجيب قلبي يتعالى.

ضممت قدح الشاي الساخن، و اتّخذت لنفسي مقعداً في الشرفة رغم الجو البارد، والأمطار الرعدية التي جعلت الجميع يهرول لمنزله، لكن هذا الجو الشاعري يكمل أمسيتي الكئيبة كسابقاتها، منذ أربعة أشهر وثلاثة أيام وخمسة ساعات، أذكر ذلك اليوم جيداً، كأنه حدث للتو، لازال وقع اللحظة يزلزل كياني، صوت أنفاسه المتهدّجة، وجهه الشاحب الذي وصمه المرض

اللعين ببصمته، لكن رغم سكرات الموت المخيفة، لم يطلق سراح يدي حتى آخر لحظة، حتى توقفت أنفاسه، وجحظت عيناه الزمردية المنطفئة.

يقال أن الروح تعود لبارئها بعد الموت، و يوارى الجسد البالي تحت التراب، لكن ككل تفاصيلنا الشاذَّة، توارى جسده مع روحي خلف الثرى البارد، في ظل انغماسي بين غياهب ذكراه، وقع بصري على كائن منحني الظهر يتشح بالسواد لا يظهر منه سوى عينيه الكحيلتين غريب أن أستطيع رؤية عينيه من هذه المسافة البعيدة، لم يكن نظري حادًا لهذه الدرجة، هالني مظهره الرث وسط هذا الجو الغاضب، لم أجد نفسي سوى أمامه، أو أمامها إن صح التعبير، أسندتها نحو المنزل، كانت يديها دافئتين جداً، وملابسها غير مبتلة رغم أن لحظاتي المعدودة أمام المدخل تسببت في ابتلالي من رأسي إلى أخمص قدمي، طردت كل هذه الأفكار المجنونة من عقلي، سأسمح لها بالمكوث في منزلي حتى تتوقف عبرات السحب، ثم أمنحها بضع قروش تعينها على طريقها، وربما سيضفي وجودها القليل من الأنس، أجلستها على أقرب أريكة للمدفأة، هممت لأترك يديها كي أحضر مشروب الكاكاو الدافئ، لكن قبضتها المليئة بالتجاعيد كبَّلت ذراعي حتى توقفت دمائي عن الجريان، لكن ذلك لم يساوِ شيئاً أمام نظراتها المخيفة، التي اخترقتني حتى بتُّ أشك أنها تقرأ ما بداخلي، سرعان ما تحولت شكوكي ليقين عندما هتفت بفحيح:

- هل تشتاقين له؟
- من تقصدين؟
- الذي اختطفه منك الموت.

حاولت التملص من حصار عينيها قبل قبضتها الفولاذية، وأنا ألعن في سري غبائي الذي قادني لإحضارها لمنزلي، الشيء الوحيد الذي لم أرغب في تعلمه منه، الطيبة والرغبة في مساعدة الآخرين، بعدما كنت غير مبالية بأي كان حتى نفسي، لقد صنع مني كلاريس أخرى، لم أتخيّل في أوسع كوابيسي أن أتقمَّصها.

أخيرا فكّت وثاقي، لأسقط أرضا بأعين شاخصة، ورعب عصف بكياني، ليس لما حدث بل لتحولها المفاجئ إلى هيئتها السابقة، حتى تلك الهالة المخيفة ورائحة الدماء التي خنقت أنفاسي اختفت كأنها لم تكن، أردت كسر روتيني لكن ليس بهذه الطريقة، انتفضت على صوت الرعد الذي يؤازرها لبث رعب لم يدرج يوما في قواميسي، زحفت للخلف بسرعة، سرعان ما هرولت للمطبخ ألتقط أنفاسي الضائعة، نظرت لذراعي لأجده سليماً بعدما كان الألم يقطع أوصاله، كتمت ارتجاف جسدي الهزيل بصعوبة، لأعد لها مشروباً ساخناً يلهيها عني، ثم خرجت أحسب خطواتي المتعثرة، لأجد الصالة فارغة ماعدا حقيبتها ذات الألوان القاتمة، وضعت الكوب جانباً، و جلت المنزل للبحث عنها دون جدوى، تهالكت على الأريكة التي كانت تجلس عليها، و نظراتي الفضولية مصوَّبة نحو الحقيبة التي تركتها سهوا أو عمدا، لا أدري المهم أنها غادرت قبل تحويل تخيلاتي إلى حقيقة ملموسة، مع أنني أتمنى الموت للحاق به لكن ليس على يد عجوز يتلبّسها الشيطان، مددت يدي لأفتحها.

– أحيانا تكون نهاية الفضول وخيمة.

كتمت صرخة مدوية كادت تنفلت من شفتي، نظرت لمصدر الصوت، لأجدها جالسة خلف طاولة الطعام ترتشف المشروب بتلذذ، لحظات بطيئة مرت، يسودها صمت يكسره دقات عقارب الساعة، وعقلي الراكد يحاول التفكير في مخرج لي من هذا الكابوس المريع، كيف لعجوز بائسة زرع الرعب في النفوس بمجرد نظرة، أنهت الكوب ووضعته بهدوء، ثم سارت تتعرج في خطواتها، الى أن وصلت إلى فاقتحمت أنفاسي رائحة الدم مرة أخرى، لتهتف بنبرتها المرعبة، و أنفاسها الحارقة:

– عزرائيل دوماً ما يقوم بعمله على أكمل وجه، يستل روحك ببطء شديد غير آبه بتوسلاتك فرصة أخيرة.

رغم أن ما تقوله ليس غريباً، لكن قوله هو الأغرب، للحظة ظننت أنه ملك الموت يتلبس جسد عجوز بائسة، ينتظر اللحظة المناسبة ليسلبني روحي المنهكة، أغمضت عيني أنتظر اللحظة الحاسمة بشوق يتخلله الخوف، لكن طال الانتظار حتى تملك مني اليأس، أفرجت عن عيني الواهنتين لأصطدم بحدقتيها اللتان تستلذان بخوفي، لتسترسل بنفس النبرة:

– ومهمته تنتهي بتحرير الروح من الجسد البالي.

– ماذا تريدين مني؟

قلتها بحروف متعثرة، لتهديني أبشع ابتسامة رأيتها في حياتي:

– أنت من تريدين وليس أنا كلاريس، ترغبين في إعادته من براثن الموت، لتعود لك روحك، أليس هذا ما تطلبينه من محراب أوجاعك كل ليلة.

اتجهت أفكاري لصندوقي الأثري، كيف عرفت بشأنه؟ سؤال غبي فشيطانها لن يصعب عليه اقتحام الجدران، فكيف بالصناديق، أجل لقد بت شبه متأكدة أن من أمامي لن يكون انسانا أبداً، تحلّيت بآخر ما تبقى لي من قوة واهية، ثم قلت بثبات متحاشية النظر لبؤبؤيها المخيفين، لكنها قاطعتني بفحيح، بعدما اقتربت من أذني:

- بإمكاني إعادته.

ثم ابتعدت ببطء قضى على آخر ذرة ثبات لي، لكن لأكون صادقة فقد بعث كلامها القليل من الأمل بداخلي، حاولت عبثاً عدم إظهاره كي لا أشعرها بضعفي:

- و هل للأموات عودة قبل الميعاد؟ أوَ أبدو لك بائسة لدرجة تصديق مشعوذة مخادعة مثلك؟

لم تتأثر ملامحها، بل تمتمت بعدة كلمات لم يتسنَ لي السؤال عن كنهها بسبب الظلام الذي ابتلعني.

بعد مدة لا أعلم مقدارها فرقت جفوني ثم نظرت حولي بأعين زائغة، لأجد نفسي نائمة على الأريكة، لكن لا أثر لتلك العجوز، تناهى لمسامعي صوت همهمات مصدرها غرفة النوم، اتجهت بجسد مرتعش، لكن ما رأيته كان أبعد ما يكون عن تخيلاتي، مددت يدي أتلمس كتفه ليستدير نحوي بابتسامته التي تبدد كل أحزاني.

- ماثيوس؟!

قلتها بهمس يكاد لا يكون مسموعاً، أخشى أن يختفي كسراب صنعته مخيلتي، بعدما بلغ الشوق ما لا يستطيع قلبي تحمله، ليجيبني بهمس مماثل لكنه بطيء كعادته، كي يتذوق حروف اسمي ويعزفه على أوتار قلبي:

- كلاريس، اشتقت لك.

وقف أمامي يمرر بصره على وجهي، بينما تتسلل يداه لتمسك بخاصرتي، سرعان ما ابتعدت للخلف ملتصقة بالحائط، أحاول عبثاً استيعاب كل ما يحدث، رغم رغبتي العارمة في الارتماء بين ذراعيه، لأودع آلامي كما اعتدت دوماً، وقع بصري على الصندوق المفتوح، وإحدى رسائلي تقبع بين أنامله، حينها تذكرت كلام العجوز؟ إذا لم تكن مخادعة بل أعادته من جديد، لكن ما المقابل؟ تركت هذا السؤال جانبا لا يهم... هو هنا أي شيء آخر غير مهم، حتى لو كان حلماً جميلاً سأنساق خلفه، بضع جرعات من السعادة ستحييني من جديد، لن أبالغ إن قلت أنه كان أجمل أيام حياتي وأسعدها، ربما لأني على يقين أنه سيختفي في أي لحظة، وأعود أنا إلى سراديب وحدتي المُظلمة، حتى تلك الروايات التي كنت أتذمر لمجرد رؤية زاويتها التي تحتل المنزل، استمعت إليه بشغف وهو يقرأها بصوته الندي وتعابير وجهه التي تتغير مع تغير الأحداث، وتلك الأطعمة التي أمقتها تناولتها معه فقط لأنه يحبها، لم أدخر جهدا في إسعاده، فابتسامته المشرقة تنير دهاليز روحي المعتمة، حتى نال مني الإنهاك مبلغه، لأتوسد صدره بدل قمصانه المعطّرة بعبقه الزاكي، أتشبث به بكل ما أوتيت من قوة، أحارب سلطان النوم باستماتة، لازالت زهور قلبي لم ترتوِ بعد، ولو أنني أشك أنها سترتوي يوماً، لكن في النهاية خارت قواي، فاستسلمت للنوم بعدما أطرب أسماعي بإحدى

تهويداته، أتدثر بأنفاسه الدافئة، لكن تلك الأشعة التي انبعثت من النافذة جعلتني أنتفض بهلع أبحث عنه في أرجاء الغرفة التي عادت باردة كالصقيع كما كانت قبل عودته، اختفى عبقه، اختفى كل شيء… انسلّت السعادة كذرات رمل مهما أحكم لجامها، صُلت وجلت أنحاء المنزل كمن تلبسه الجنون، إلى أن اصطدمت بحائط بشري ذو رائحة مألوفة، تراجعت بضعة خطوات للخلف لأرى هويته، ومن ستكون غيرها، بابتسامتها المقززة، و حدقتيها الحمراوتين، لا أدري أي شجاعة واتتني في هذه اللحظة، كلبؤة جريحة سُلبت شبلها، أمسكتها من ردائها المتهالك ناظرة لوجهها دون خوف:

- أين هو؟ ماذا فعلتِ به؟
- ماذا ستفعل مشعوذة كاذبة مثلي؟

قالتها بسخرية أضرمت نيران الغضب بين جنباتي:

- بل أنت شيطان في هيئة إنسان، أخبريني أين ماثيوس؟
- هو هنا بيننا، لكنه لن يظهر إلا إذا أذِنتُ له بذلك.

خفّقتّ من قبضتي دون وعي، أتلفت حولي باحثة عن أي أثر له دون جدوى، لو كان هنا سأشعر به، قلبي لم يُخيب ظني يوماً، فكيف يفعلها الآن، أفقت على همسها الذي اعتدته:

- أنت من ستعيدينه.
- كيف؟
- بالقربان، قدمي روحاً بدلاً عنه وسيعود إليك للأبد.

ابتلعت ريقي لأبلل حلقي الذي جف من هول ما أسمعه، حاولت إبعاد أفكاري عن المنحدر الذي قذفتني نظراتها نحوه ، وقلت في توتر:

– وما هو هذا القربان؟ حيوان؟

دقات الساعة تشير للتاسعة مساءً، أجلس على الأرضية أمام المدفأة، أراقب بشرود ذلك الصندوق، أفكر في كلامها الذي لن يتقبله عقل بشر (روح مقابل روح)، كيف سأقتل إنساناً؟ مجرد التفكير في هذا يجعل الرعب يسري في خلايا جسدي، لكنه ماثيوس مهجة قلبي، وقرة عيني الذي علمني كيف أعيش، وعلم قلبي معنى الحب والعشق، أوَ لا يستحق أن أحرق الكون لأجل ابتسامته، انتفضت على صوت جرس الباب، تقدمت منه ببطء ثم نظرت لهوية الزائر، و الذي لم يكن سوى مارلا جارتي منذ سنوات، فتحت الباب بارتباك أشعرها بالريبة:

– مارلا أهلا بكِ.

قالت برقتها المعهودة والتي لا تروقني أبداً، ربما لأني لست بالفتاة الاجتماعية ولا أعرف أحداً في الحي رغم سنوات مكوثي هنا:

– كلاريس كيف حالك؟ هل بإمكاني الدخول؟

أشرت لها بالدخول، دون إظهار امتعاضي من اقتحامها لخلوتي، احتلت أقرب أريكة، وعينيها الخضراوتين تنظران للصندوق بفضول جعل أفكاري تتأهب تزامناً مع قدوم العجوز، شهقت بفزع ثم نظرت لمارلا التي لم تتغير ملامحها، على ما يبدو أنني الوحيدة التي تستطيع رؤيتها، حضرت

لها مشروباً دافئاً، وناولتها إياه بابتسامة سمجة أشعرتها بالإحراج، وتلك الشيطانة تغزل في عقلي خطتها الجهنمية، تشير بعينيها لسكين الفاكهة، هامسة في أذني بفحيح:

– طعنة واحدة ستعيده.

مددت يدي للسكين دون وعي، وعقلي البائس يصور لي سيناريوهات من المستقبل، امتزجت مع ذكريات الماضي، ماذا لو طعنتها؟ وعاد لي ماثيوس كيف سأواجهه، وهو الذي أفنى حياته لحماية الناس، كيف أصبحت لعبة بين يدي عجوز جُردت من الرحمة، ليس غريباً أن أصبح أنا القربان في الغد، لأعيد لأحدهم روح محبوبه، وتستمر الحلقة في الدوران حتى تُحصد أرواح الناس، بسبب شوقهم لمن انتهت حياتهم، كانت خطوة جريئة لكن حب ماثيوس منحني القوة لفعلها.

ثواني معدودة كانت كافية للتخلص من هذا الكابوس، وقفت حاملة النصل الحاد، لأوهمها بنجاح خطتها، وبحركة خاطفة دفعت بالصندوق للنيران الملتهبة، فتعالت صرخاتها المتألمة، تشوبها اللعنات حاولت انتشال الصندوق من ألسنة اللهب، لكن جسدي الهزيل وقف حائلاً، أما مارلا فكانت تنظر لكل ما يحدث بأعين شاخصة، تطالبني بالتوقف عن إيذاء نفسي، بينما أطالبها بالهروب كي لا تكون وجبة لانتقام العجوز.

بعد حرب دامية دامت لدقائق خرجت منها فائزة كما اعتدت دوماً، تهاوى جسدي المنهك يحارب الظلام دون جدوى، أفقت على أصواتٍ عدة تقتحم غفوتي المؤقتة، لأجد نفسي في غرفة بيضاء، مكبلة في سرير حديدي، لأكتشف في النهاية أن كل ما رأته مارلا هو محاولتي للانتحار، عن طريق طعن نفسي بسكين الفاكهة، ليُحكم علي بالجنون، رغم محاولاتي العديدة بإقناعهم بما

حدث، لكن لم يصدقني أحد، الجانب الإيجابي أني تخلصت من تلك الشيطانة، دون أي خسائر لأجعله فخوراً بي، وها أنا أنتظر موعد اللحاق به بشوق لن يخبو.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

ملائكة النار

محمد رياض كمال – مصر

خفقت رايات الظلام في ليلة هبت فيها رِيحٌ شديدة، رياح تضرب فيها الجلود، وتطرد الثلوج، رياح يدويّ صوتها المُجلجل بداخلك، تهب نسائمها فتتراقص سنابل القمح تحت الأغصان العارية.

نهضت هلوعًا، جبيني يقطر عرقاً، وعقلي يئن كمحرك قطار بدائي، مُستَلقِيًا على الفراش بنفسٍ خائرة، وجسم ضعيف. فردت جسدي فطقطقت مفاصلي ألماً، بدأت بتحريك جسمي مقاوماً جبلاً جليدياً وضع فوقي، كل ما أتذكره أنني ارتميت على الفراش كنخلة شامخة انقطعت من منتصفها، بعد أن ابتلع ريقي نصف زجاجة ويسكي أيرلندي جعلتني خارج نطاق الخدمة لساعات. يكتنف الضَّبَاب الأشياء من حولي، فتحت عينيَّ على وسعهما حتى اتضحت الأشياء بعض الشيء، ليلة اليوم ليست كباقي الليالي فليلة اليوم مُوحِشة بظلامها القاتم.

أشعر بملمسٍ بارد، حاولت التحرك فعرقلتني جذور سوداء، إنها سلاسل! سلاسل ضخمة سوداء اللون متداخلة، التفت حولي كثعبان مُتمرغ يلتف حول فريسته، أين أنا بحق الجحيم؟ إنني مقيد بالكامل في خندق أو حُفرة مُستطيلة الشكل، ويعلو سقف تلك الحفرة كُوَّات تطل منها بعض خيوط القمر الفِضية. نعيقه قريب جدًّا، كنعيقه في ساعة قتل قابيل لأخيه هابيل، نعيقه يأتي من بعيد في لحن تصاعدي متوجس، ليعلن دق طبول الحرب، له صوت يزلزل أركانك، يعلمك بأن القادم هو الأسوأ، أسمع صوت تضارب أجنحته السوداء اللامعة.

أين أنا؟

حاولت الصراخ فتقيأت صمتًا، حاولت مرة أخرى فلم يستجب فمي. وبعين غائصة في الظلمة أبصرته وسط الظلام، يدحجني، يديم النظر إلى شَزَرًا، أشعر بهيبته التي تملأ القلب بالخوف والفزع، أشعر بذلك الوجه، بوجهٍ شديدٍ قويٍّ، وجهٍ يقطر سُمّا.

– لا تتحرك فلا مجال للهروب، فأنت هنا على حافَّة الهاوية.

أتهدج كمن يغالب موجة تغالبه، صرخت حتى تمزقت أطراف شفتَيّ، صرخت فخرج صوت شارخ بصعوبة، يتصبَّب جبيني عرقًا امتزجت به رائحة الخوف، تقدمت خطوات أرجله المتزامنة مع أصوات قضَقضة عظام، ثم توقف وحدَّق في عينيَّ، تلك العَينين التَّائهتين طالِبَتَي المَدد. تقدم خطوة أخرى ليكشف ضوء القمر عن ملامح امرأة لها نصف رأس مغطاة بشعر كثيف، وأسنان طويلة اكتنفت منابتها باللون الأحمر، لتختفي مرة أخرى في الظلام. كانت خطوات أرجلها تتناغم مع صوت جر مطرقة ضخمة، يتصادم رأسها الحديدي بالأحجار. ليصدر صوتاً تهابه النفوس، تقترب خطواتها أكثر فأكثر، تلك الخطوات التي تنذر بهبوب عاصفة غاضبة. ثم وقفت أمام كوة تدلَّى منها ضوء القمر لِيُظهِرَ وجهًا ماتت فيه الحياة، وجهًا دبَّت عقاربُه، وجهَ عجوز شمطاء كبيرة السن، عوراء العين، لها شعر مجعد مُلتوٍ تنبثق منه رائحة البول.

– من أنتَ أو من أنتِ، أين أنا؟

رفعت مطرقتها وبأزيز أصَمَّ أذني:

– أنا ظلامك.

لتهوي المطرقة للأسفل ناحية صدري بقوة، لتنبعج الأرض من خلفي وينشق باطنها، لأسقط إلى هاوية مظلمة كطير سقط من علو السماء إلى أسفل الأرض. لم يطل الوقت حتى ارتطمت بالأرض. فدوَّى جرس إندار طنّ خلف محجري عيني، طَنين فتَّاك قادر على شطر رأسك إلى نصفين.

أسمع صوت فحيحها المرير، فحيح أفعى سوداء لم تذق معدتها القوت لسنوات، وقادرة على افتراس مَن أمامها في هُنَيهَة. أشعر بلمسات جسمها الأملس، أشعر بأنفاسها التي تُلهب وجهي، تقف أمامي بعينيها التي تقدحان بالشرر ولسانها المشقوق الذي يمتد نحو وجهي ثم يعود سريعاً إلى الداخل. اقتربت مني، فتحت فمها لتظهر أنياب مدببة على وشك التهامي، ليظهر صوت غليظ النبرات مِن ورائها:

- «ارحلي».

نظرت الحيَّة إلى الخلف ثم مضت إلى الخفاء. وبالرغم من اختفائه بالظلام لكنني أشعر بوجوده:

- أين أنا، ومن أنت؟

لم يستجب.

- من أنت؟

ظل صَامتًا لم يَفه بكلمة، صرخت صرخة تُدمي القلوب:

- أين أنااااااا؟

وبصوت غليظ خشن مرتفع النبرات:

– أنا وسواسك، إيمانك الضعيف.

تحاول الصراخ، ولكن الطوق الذي وضع حول عقنك يمنعك.

– لِمَ أنا هنا؟

بصوت مُشَوش ذات صدى مزعج أكمل:

– أنا مُرشد التائهين مثلك.

– مُرشد؟

اختلست نظرة فلم أقدر على تحديد مكانه فكان أكثر حلكةً من الظلام.

– أنا تلك البذرة التي بداخلك وتؤمن بوجود اللّه.

عَصرتني السلاسل فانغرست في الأرض أكثر فأكثر.

– من أنت؟ هل جئت لتعذبني؟ هل جئت لتأخذ روحي؟

أعلم لِمَ أنا هنا الآن، أنا المُشوش مُتخبط الخطى، أنا من جحَد وجود اللّه من أشهر عديدة، أنا المائل عن الدين، أنا من بداخلي أسئلة وأسئلة بداخل جعبتي.

– أعلم ما يدور برأسك يا موسى، أنا الرسالة الأخيرة قبل رؤية خالقك.

ضحِكت حتَّى ظهرت نواجذِي لتسيل قطرات الدمِ من فمي المنفرج:

- الخالق؟ هل للخالق وجود؟ عن أي خالق تتحدث أيها الغريب؟

أعلم ما ينتظرني الساعات المقبلة، أشم رائحة النار الذي ستحتدم في جسدي لتجعله رماداً.

- الخالق الذي خلق تكوينك من طِين، فأخرج هيئتك من نُطفة لا ترى بالعَين المُجردة.

سعلت لُعابًا امتزج الدم به:

- ذلك الخالق الذي خلقنا ليتفنَّن في تعذيبنا؟ ذلك الذي خلقنا ليبتلينا بتلك الاختبارات التي وضعنا بها دون أي خيار لنا؟

- غريب أمرك يا موسى، فعلت ما لم يفعله كفار قريش!

- إن كانت كل المقادير كُتبت في اللوح المحفوظ أيها الغريب، ويعلم اللّه مصيري منذ ولادتي، لِم أنا هنا؟

- أنت المسير والمخير، أنت المسلم والكافر، أنت الزاني والعفيف، أنت المنافق والصادق، أنت من ترسم طريقك كما اخترت طريق ابتعادك عن زوجتك.

تلك الكلمات التي أضرمت ما بي:

- زوجتي؟ إن كنت أمامي لفرمتك أيها الساذج.

كم أكره ذلك الصداع الذي يطرق رأسي بلا رحمة:

- خذ روحي واغرس رمحك في قلبي ومزقني، اقتلني بحرارة كمصارع لا يعلم معنى الرحمة.

- أنت أعمى البصيرة، مُلحد مناقض للعقل، كل ما بداخلك مِن فعل إبليس.

- إبليس؟ إن كان إبليس من أخرجَ آدم من الجنَّة، فمن وَسوس لإبليس؟ لِمَ خلق اللّه الشر؟

- التهبته نيران الغيرة والكِبر مثلك، فوسوس لنفسه.

- الغيرة؟ إن كان اللّه يعلم ما سيحدث لنا، لِم خلقنا اللّه؟

- الابتلاء هو حب الخالق لعبده، وإيقاظ عباده من غفلتهم، اللّه ملك السماوات والأرض، إن اللّه غنِيٌّ لن ينقص أو يزيد بعبادتك، بل أنت، أنت يا موسى.

اتقدت السلاسل، فسمعت صوت شواء جلدي وتمزقه كلحمة وضعت على نار هادئة لتستوي.

- قلت لك لن أستسلم لتلك التفاهات.

كتمت صرخة كادت أن تنفجر وتدويّ في المكان.

- موسى ما الفرق بين الملائكة والشياطين؟

تسيل الدماء من جلدي الممزق المشوي.

- تريد السيطرة على عقولنا بتلك الأسئلة دفاعاً عن خالقك، أنا أتيت تلك الأرض عن طريق التطور، وإن جئت بالفعل على يد خالق كما تقول، فلِم لم يستشرني اللّه قبل خلقي؟

- يستشيرك؟ وكيف ذلك وأنت لم تكن موجودًا؟!

- لن يفلح ذلك الكلام الفارغ الذي ملأ أفواه شيوخ المجالس.

- أنت ناقص العلم والدين، فكيف لك أن تختار لنفسك أشياءً لا تعلمها؟ لا تنظر بعيداً، انظر إلى حالك ستجد كل الإجابات لكل تساؤلاتك.

- إنها سُنَّة الحياة أن نختار أشياءً لا نعلمها.

- وحتى في سُنَّة الحياة لك اختيار.

التفتُّ إلى اليمين، فوجدته أمامي، عقرب أسود اللون له رأس ضخم، وزعنفة ظهرية كبيرة، اقترب مني وغرس إبرته بداخل بُؤْبُؤ عيني لينثر سمّه بداخلي، فقدت إدراكي للحظات. يتدفق سمّه بشرياني كتدفق النهر في الوادي، لم أدرك ما حولي بسبب جرعات التخدر التي غزت عقلي وجعلته في سبات عميق. يتلاعب عقلي بي، أشعر بلمسات يديها، تلك اللمسة التي بمثابة سلام لضائع طَريد بلا مأوى. أتذكر سقوط دموعك وانهيار كبريائك وصراخ قلبك عندما قررت تمزيقك: «نيرمين أنتِ طالق» بينما كنت أحمل حقائب الرحيل كانت هي تحاول ترميم جدار مُنهار منهُوكٍ على وشك السقوط. أتذكر عينيها المحاصرتين بكحل ثقيل، وقسماتها الناعسة، كانت لها ابتسامة تبرز فيها غمازتان قادرتان على إعادة تكوين إشارات قلبي من جديد. لماذا لا تميلين لنجم مثيرٍ منيرٍ مثلك؟ لِم تحبين الهجرة؟ تحبين نجماً انعزلت عنه كافة وسائل الإنارة في العالم، الإنسان يموت تدريجيّاً من كثرة الانتظار لشيء يظن يوماً أنه كُتب له.

- «موسى موسى موسى».

هل هذا صوتها؟ وإن كان ماذا سأقول؟ هل أقول لها إنني هويت في بئر ليس له مخرج؟ أم إنني أحيَا في ظلام ليس له بداية أو نهاية؟ مدين لكِ يا نرمين بكل شيء مكسور، مدين لكِ بكل تلك الأفكار الشاردة التي سَكنت وِجدانك، أنتِ كنتِ نوراً في ظُلمة شخصٍ بُترت بداخله آخر حِبال الأمل، أما أنا فكنت أهوجَ غمَط نعمة كانت بين يديه، أنا أعلم من أنا جيدًا، من أنا؟

أنا سؤال بلا جواب.

أنا دائِرة لم تكتمل.

أنا صورة باهتة نَسِيَ الرسام استكمالها.

أنا من عشّشت فيه الآلَام عَنْوة.

أنا الذي قتل نفسه فأصبح وحيدًا بلا أصدقاء يبثون الروح فيه أو حبيبة تتغنَى باسمه فتنتشل أفكاره وتَحبس أنفاسه. فمن الصَعب أن تزيل شِباك الألم التي اقتَحمت أسوَار حياتك وعاشت بين ثَنايا قلبك، فأكبر عدو للإنسان هو الإنسان نفسه. كم هي ليلة شاقة، عاد صوته يَدوي في جنبات عقلي.

– موسى شارب الخمور وصاحب هوى، مُطلق ومُلحد، كم هو ملف مُشرف لخروجك من الحياة!

صوته يقتلني كالتصاق شظايا زجاجية مسننة بداخل أنسجة مخي:

- اخرج من عقلييييي.

- لا تتكبر يا موسى، فالحقائق لا تُنسى.

توقف العالم من حولي هُنَيهة، ثم هلَّت فجأة غَيمة كبيرة بيضاء كلون الثَّلج، عُرضت بداخلها بعض الأصوات والصور كفيلم تسجيلي يُبث أمامك في قاعة عرض سينمائيَّة، صور لأشخاص مختلفي البشرة والهيئة، ليتوقف الفيلم بغتة، بسبب موجات التشويش التي اخترقت تلك المشاهد، هل ذلك حقيقي أم عقلي يتلاعب بي؟ بدأت موجات التشويش بالاختفاء تدريجيًا لتظهر ملامح ذلك الفيلم بالكامل، فيلم به رجل بصدغ عريض نبتت فيه لحية بيضاء كالهالة، يلاعب طفلاً صغيراً في سن العاشرة، ثم خلع خاتماً بفصوص ذهبية كُتب عليه «اللّه» ومد يده ناحية الطفل قائلاً:

- هذه الهدية البسيطة مني، وهو خاتم تذكاري، عندما تنسى فروضك انظر إليه لتتذكرني وتتذكر تربيتي الصالحة لك.

ليختفي ذلك الفيلم ويُبث فيلم آخر تجلس فيه نيرمين على كرسي منحنية الظهر وتتحدث إلى شخص مجهول الهوية غُشي وجهه بغشاء أسود منعني من رؤيته بوضوح:

- أضعتني من يديك، ألم أكن بجانبك؟ أنت لم تبتعد عن اللّه فقط بل عن الحياة كلها.

ترقرقت دمعة من عينيها وجدت لها سبيلاً للخروج، ثم أكلمت:

- هل تعلم ما هو الحُب؟ الحُب كالبحر الذي تأتيه مندفعاً وأنت تعلم يقيناً أنك ستغرق في أعماقه، كما مره أتيتك مندفعة؟ وكم مرة غصت بأعماق البحر ولم تمد يديك لتساعدني؟ الحُب هو شهادة حقيقية لاعتزال الحياة، الحُب هو كِذبة، كِذبة صدقها أمثالي معتقدين أنه الماء الذي سيروي الأراضي اليابسة القاحلة. احذر نار الحُب فإن لم تشوهك، فأعلم أنها ستقتلك بالتأكيد.

لينغلق الفيلم مرة أخرى ويظهر فيلم آخر به طفل في عمر العاشرة يمشي مستقيماً على خط أسود بمنتصف الطريق، لتنزلق أرجله من على الخط لتأتيه صيحات من شخص مجهول دقت كجرس إنذار بداخل أذنَي الطفل:

- احذر خطواتك، احذر هلاك ملائكة النَّار، لا تغفل طريقك أيها الفتى.

تداخلت الأفلام في بعضها بعضًا:

- أنت أناني، يجب أن تعبد ربك... أبي أين أنت؟ أبي أنا أحبك، أنت خائن، لا تنسَ ربك يا موسى.

لينغلق الفيلم وتنقشع الغيمة وتتلاشى ببطء، كرماد متطاير من شدة الهواء. اِنفكت عقد السلاسل الحديدية بقوة وترامت على الناحيتين، لينهمر الدم على كل الأجزاء التي تخدرت.

- هناك وقت للامتحان، قادر أنت على مسح وشطْب وكتابة ما تريده، وهناك وقت نهائي لتسليم ورقة الامتحان يا موسى.

- كيف أعلم أنني في الدين الصحيح؟

- انظر حولك وستعلم أن كل البراهين والدلائل على وجه الأرض التي دلت على وجود اللّه لم تُحمل إلا في دين واحد وهو الإسلام.

- ماذا إذا أحبني اللّه؟

- سيعالج روحك المريضة.

- وإذا عالجها؟

- أخرجك من ظلامك.

- لماذا جئت إلى هنا؟

- عندما تدق عقاربها، وينبض القلب، انظر إلى يمينك، ستجدها هناك مُعلقة.

رأسي تغلي كغلاية ماء، فقط أريد هدنة لألتقط أنفاسي.

- ماذا تقصد؟

- ألم تسأل نفسك يا موسى لِم أنت ضعيف، ومشتت؟

- لماذا؟

- «في قلوبهم مَرَضٌ فزادهم اللّه مَرَضًا».

انسحب جسدي إلى الأعلى كانسحاب عروسة خشبيَّة على مسرح العرائس بخيط رفيع، هناك ومضَات أو فلاشات تشيع ثم تختفي وكأنها بمثابة طوق نجاة، شُلت أوصال روحي، وتشنجت أجفان عيني. خرجت من ذلك العُقر الذي احتواني لسويعات قليلة أو أيام لست أدري. انسحبت

للأعلى حتى وصلت إلى الفضاء الخارجي، فضاء شاسع يحمل أجراماً هائلة معتمة تحوم حولها نجوم يافعة متلألأة وكواكب تسبح في كبد الفضاء، وشعاع مُذنب ساطع أضاء الفضاء. رأيتني في ثوب شفاف مقلم بخطوط بيضاء، أرى أرجلي حافية متطايرة في الهواء، ها أنا أموت لأقابل ربّاً لست قادراً على مقابلته، كيف شكله؟ كيف خُلق؟ أين كان قبل الخلق؟ بدأت النجوم والكواكب بالانفجار لتتطاير شظايا التحطم في الفضاء، ثم اِسود المكان من حولي وهويت في ظلام ساكن بلا نجوم بلا حياة، أشعر بلمسات يدي حقيقية، أستمع إلى صوت زفيرهم وشهيقهم، فتحت أعيني فكانت هناك؛ نيرمين.

- أيها الطبيب لقد أفاق موسى.

وجوهاً مشوشة وملامح لم يترجمها عقلي بعد، ووهن يفكك في مفاصلي.

- حمداً لله على سلامتك يا موسى، كانت معجزة أن تعيش بعد انقلاب عربتك بعد أن أفرطت في شرب المشروبات المسكرة.

وضعت أقدامي على الأرض غير مبال بأفواه الجميع المفتوحة وجهاز رسم القلب اللعين الذي يعوي طالبا من أحدهم أن يوقفه.

- إلى أين أنت ذاهب؟

أزحت الجميع، وبخطوات مهيضة تضربان بعضهما ككرتي بلياردو، انتقلت إلى طاولة وضع فوقها شنطة سوداء بعثرت بجانبها الكثير من الأدوية، فتحتها بحذر ومدت يدي إلى قلب الحقيبة

فأخرجت منها خاتماً تآكل من الصديد، كُتب عليه «اللّه». صوتها الذي يقَرع بداخل رأسي «تيك توك تيك توك» ساعة مزعجة تالفة تلهث عقاربها فتتحرك إلى الساعة الواحدة ثم ترجع إلى الثانية عشرة، وكأنها تستنجد بكل تلك «التيك توك» المحشورة بداخل حلقها:

– عندما تدق عقاربها، وينبض القلب، انظر إلى يمينك، ستجدها هناك مُعلقة.

نظرت إلى يميني فوجدتها هناك مُعلقة على الحائط:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}

سورة التحريم

طرقات لحوحة، تحاول أن تخرجني من سجن شرودي الذي أودعت فيه.

– أبي ماذا بك؟

– مريم.

احتضنتها، كرجل حرب لم ير ابنته منذ سنين.

«يا اللّه لا تتركنا فنهيم، ولا تعتقل أرواحنا فنتعذب، ولكن ارفق بنا فنتعلم».

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

انـزع دثـاري

رنـا العـسلي – سـوريا

لم تكن الغرفة البيضاء التي وجدت نفسي بها مريحة، فرغم اللون الأبيض الذي ابتدعته المشافي في تصميمها لراحة المريض النفسية، كانت غرفتي مصدر كآبتي، استيقظت لأجد نفسي بين براثن المحاليل المتصلة بجسمي وقد أُعتقلت حركتي باللاوعي، حاولت مراراً أن أتذكر ماحل بي، عدت بذاكرتي قليلاً إلى الخلف، عروساً كنتُ معروضة في صالة الأفراح الضخمة المخصصة لأعراس النساء، وحولي تكاثرت التبريكات والكلام المعسول عن جمالي الأخاذ، البوفيه المفتوح الذي أوصى به العريس حمل ما لذ وطاب من المأكولات الشهية والثرية بالروائح الرائعة، وبدأت الزفة معلنة قدوم العريس، الرجل الذي اخترته ليكون شريك حياتي المقبلة، أذكر أنه حين تقدم لخطبتي عن طريق الأهل والمعارف لم أكن متأكدة من نيتي بالقبول لكن معاملته والكثير من الثقافة التي لاحت على وجه حروفه جعلتني أوافق، مرت شهور الخطبة بشكل جميل، هدية في كل زيارة وعزومة فاخرة لمطعم ما في المدينة ورغم أني من عائلة ذات مستوى مادي جيد إلا أن الكرم من أهم الصفات التي جعلتني أشعر بالراحة لهذا الرجل .

– يا ويلك من اللّه يا مريم .. سودتي وجهنا ..

أيقظني صوت أمي الباكي ، لماذا تبكي أمي ؟.. لكن لماذا تدعو علي أيضاً ؟. أحاول أن أستجمع ذاكرتي كي أعلم ما حدث البارحة، أين أنا ؟...

في السيارة التي ستقلنا إلى الفندق الذي سنقضي به ليلتنا شاهدت الشوارع بنظرة جديدة، فمنذ الليلة سأكون بجوار رجل يحمل عني وأحمل عنه متاعب الحياة،ونرسو على شاطئ الحب والأمنيات العذبة، نظرت إليه يتأملني بعينين عاشقتين، يقبل يدي ويضعها على قلبه ويتنهد بشوق، بادلته النظرات وعدت إلى نافذة السيارة، غطى الليل مساحة الحركة بأكملها فكان الهدوء صفة المكان، الشوارع مقفرة إلا من صوت عجلات السيارات المارة، مواء القطط له نصيب من الليل الحالك ايضاً، وبعض الشبان يضحكون بصوت مرتفع على جانب عمارة ويتغامزون على إحدى النوافذ التي لفتت نظري لأجد فتاة صغيرة تطل بخجل وتختبئ، ما أجمل قصص الحب التي لم أعشها، ربيتُ في بيئة صعبة المراس فلم يكن يسمح لي بالخروج إلا مع والدتي لقضاء الحاجات أو لزيارة منزل الجدة والأقارب ، لم ألمح أحدهم يحاول التقرب مني، وكيف سيتقرب مني شاب وحولي درع صلب يمنع الوصول إلى قلبي، الفتاة في عائلتي قطعة من زجاج يخشون وقوعها في الكلام المعسول فتنجرح وتخدش كل العائلة بجرحها، الفتاة في مدينتي لاحول لها، تمر على الحب في المسلسلات وتشهق عوضاً عن البطلة في فيلم ما، وفي بعض الأحيان يمسك الأب جهاز التحكم ويغير القناة كي يمر المشهد العاطفي ويفتعل سعالاً فنركض لنحضر له الماء وننسى انفعالات الحب .

- دعوني أقتلها تلك الفاجرة، ابتعدوا عني ..

كان صوت والدي يزمجر كعادته لأجل شيء ما أجهله، هناك من يعده لكني لا أستطيع تحريك رأسي ، أشعر بالضمادات التي تلف رقبتي وجبيني، عيني متورمة، أشعر بها فأنا لا أستطيع أن أشاهد إلا ملامح اللون الأبيض في الغرفة .

في الغرفة التي أعدت لنا جلست على حافة السرير لا أعلم من أين أبدأ؟ وهل علي أن أبدأ ؟ ماذا أفعل الآن ؟

اقترب فاضل مني، لمس ذقني بأطراف أصابعه كي ألتفت إليه، كانت قبلاته دافئة كتلك التي كنت أشاهدها على اليوتيوب بالسرقة عن عيني والدتي، لم تكن لتسمح لي لو علمت لكن جهلها بالتكنولوجيا الحديثة جعلني أستطيع أن أخفي ما أشاهده عنها، كان الفضول يقتلني والكثير من المشاعر التي تجتاحني دون أن أعلم السبب، كنت أشعر باللذة التي يشعرون بها أولئك الذين يعيشون القبلات الحارة في تلك الأفلام، حضنني فاضل بجسده وتسارعت نبضاته وهو يقبل عنقي، كان يتلفظ بأشياء كثيرة ومنها سعادته اللامتناهية لوجود فتاة مثلي في قمة التربية والأخلاق بين يديه، هل أحبني لأني عديمة التجربة أم لأني أستحق الحب ؟.

كنت أرتجف كورقة خريف تخشى السقوط، تسارعت صور الأفلام التي كنت أشاهدها في ذاكرتي وبدأت أستمتع بلمساته وأجاريه باللهفة، سقط فوقي وفي عينيه التمعت اللهفة وضجت وجنتيه باللون الأحمر حتى صرخ بي غاضباً فجأة ..

– أيتها المحتالة الصغيرة كيف استطعت الكذب عليَّ وعلى الجميع؟

ضربني وضربني وأنا مشدوهة لا أعلم ماذا يجري وعن ماذا يتحدث ؟،عاد ليكمل ما بدأه ويسمعني أقسى الكلمات حتى أفرغ جبنه كله في جوفي .

ارتدى ثيابه على عجل، شدني من شعري وطلب مني أن أرتدي ثيابي بسرعة، وقفت عاجزة فماذا أفعل ؟، صرخ بي مستعجلاً حتى أنني شعرت بالفندق وجدرانه ومن فيه نالهم صراخه .

– بسرعة أيتها الفاجرة والله لأجعلك عبرة لمن هم مثلك .

لم تكُ الدموع تلك التي أحرقت قلبي بل الحيرة ، ماذا يحدث ؟ لم أجد هذا المشهد في كل الأفلام التي كنت أسترق النظر إليها ..

أحدهم يهز السرير الذي أرقد عليه، أسمع صوت الممرضة تبعدهم عن السرير، وصوت أخي الغاضب يزمجر فوق رأسي:

– ابتعدي من طريقي أيتها الحثالة ..

– لو سمحتم أخرجوا الجميع من هنا .

– ابتعدي يجب أن أقتلها وأغسل عاري .

دخل الشرطي وأخرج الجميع بمن فيهم والدتي ولم يبقَ إلا صوت أنفاس الممرضة وهي تقيس ضغطي وترتب الأشياء التي لا أراها حولي ..

– لو سمحتِ... ماذا حدث لي ؟

- ألا تذكرين ؟!

- أحاول...

جرني كجرو مريض أمام أعين الناس في الفندق، لم يرأف بحالي ولم يخبرني ماذا يحدث، رمى بي في السيارة وجلس يقودها على عجل ولم تبقَ كلمة نابية في فمه مذعورة بل أخرجهم جميعاً، على باب منزل أهلي رماني ككيس القمامة، أفرغ ما في جعبته في وجههم ومضى...

- خذوا ابنتكم الفاجرة التي لم تحسنوا تربيتها ، أنتِ طالق!

- ماذا هناك يا بني؟

- ابنتك ليست شريفة يا عمي، هي ليست عذراء!

تلون وجه عائلتي ونظروا إلى باستحقار أما أنا فلا أعلم من أين جاء بهذا الكلام، أقسم أنه لم يمسسني رجل ولا امرأة حتى فكيف أكون؟...

ضربوني حتى ما عدت أشعر بشيء، فقدت الوعي لأستيقظ في المستشفى الآن، لا أعلم كم من الوقت مضى وأنا على تلك الحالة، ولا أعلم ماذا سيحل بي بعد الآن ؟

- لقد أنقذك الجيران من أيديهم، أي أهل هم ؟. لقد تسببوا لك بالكثير من الكسور وهناك تشوه في وجهك أرجو أن يزول أثره، أجريت لك العمليات الضرورية والباقي على اللّه...

- لكن أنا بريئة...

- كفاكِ يا فتاة، الطبيب الشرعي أكد أنك... منذ سنتين...

- ماذا تقولين ؟.. هناك خطأ ما!

- اهدأي الآن، ليس هذا الوقت المناسب، علينا أن نبقيهم خارجاً حتى تشفين تماماً .

مرت الأيام ببطء شديد ، لم يزرني فيها سوى الطبيب المشرف على حالتي والممرضة، منعوا أهلي عني خشية على روحي التي لم أعد أحتمل عذابها، ميتة أنا رغم التنفس الذي يعيدني على قيد الواقع ، سألني الطبيب المشرف العديد من الأسئلة ..

- هل أجريت لك أي عمليات جراحية ؟ هل سبق وأن تحسس جسدك من أي دواء ؟

والكثير الكثير ورغم أن أهلي أجابوا عن كل تلك إلا أن الطبيب أصر أن أجيبه بنفسي ..

- نعم أيها الطبيب أجريت لي عملية جيوب أنفية، ولا أتحسس من أي دواء، ولا حتى من أي طعام ، أنام مبكراً، لا أتناول الكحول أو المهدئات ....

تماثلت للشفاء بعد وقت لم أحصيه، بكيت ليلتها بشدة، تمسكت برداء الطبيب وتوسلت إليه أن يجد لي حلاً، أقسمت له بكل الأديان أني لم أخطئ ولم أرتكب العمل الفاحش ولكن ما بين أيديهم طب شرعي وهو الحكم وهو يقول بأني لست عذراء فكيف ذلك ؟.

- ساعدني أرجوك، هل تريد أن أعود إليكم جثة هامدة، فليساعدني أحدكم يجب أن أجد حلاً .

رق قلبه، لا يعلم لماذا صدق الكلام رغم العلم والاثبات ولكن المشكلة الآن ليست بتصديقي بل بمنع الأذى عني

- إليكِ الحل، سنقول أنكِ هربتِ حتى يملوا البحث عنكِ ، وسأدعك تعملين في المستشفى وتقيمين بها .

- شكراً ، شكراً ..

لم تسعفني الكلمات ، وددت لو أطوقه وأعانقه شاكرة، شعرت بأن يد اللّه تساعدني، على الأقل بعض الوقت ليجعلني أعرف ماحل بي وأعود إلى توازني .

لملمت جروحي بين المرضى، تفانيت بعملي، كنت أشعر بالفرح حين أقدم لهم المساعدة وأخفف عن آلامهم، ولم أتوقف يوماً عن السؤال، كيف ولماذا ؟.. حاول الطبيب مساعدتي لكن دون جدوى، طلب مني أن أتقبل الأمر، سألته أكثر من مرة أتصدقني ؟..

- نعم، ولكن يا صديقتي العلم لا يخطئ.

- كيف تصدقني إذاً؟!

- بإحساسي.

ورضيتُ، لا أجمع جمري، فليس الاحتراق لحظة حين يتبدد السؤال، والرماد دهشة الأشياء المنسية خلف الجواب، هدأت نفسي مع الوقت ولم يهدأ السؤال، لكن تركت أمري بين يدي اللّه، وجدت الحب في شخص منحني كل اهتمام ورعاية لكن مصيبتي لم تسمح له بالاقتراب، ولم تسمح لي، كنت أجد الشوق الحقيقي في عينيه، واللهفة في مساعدتي عند كل أمر، كنت أجده قربي حين أتسوق وحين أتناول الطعام، يودعني على باب غرفتي ويغادرني بحب، وأسأل نفسي مراراً هل

سيتزوجني يوماً وينسى قدري الأحمق ؟، كل صوت أوجع حنجرتي، لم يكتنز صمتي بل مر ثقيلاً وغاب غريباً، فالأشياء المترفة بالحزن لم تعد تعنيني، صرتُ هواء وتدفقتُ في السماء كدعاء .

هذا الصباح لم يكن عادياً، صوت العصافير أيقظني بنشاط، تأملت من نافذتي المطلة على باحة المستشفى حركة الناس، ما أجملهم وهم يركضون إلى مشاغلهم اليومية، ورغم أني حبيسة ضعفي وهذا المكان إلا أني أنعم بقدر يسير من الراحة التي فقدتها لفترة طويلة، تصفحت بعض المواقع على النت كما أفعل كل صباح فوجدت خبراً أثار غضبي وحزني وفرحي وكل الانفعالات التي يسبب تضادها فينا الكثير من الندبات، ارتديت ثيابي بسرعة كبيرة وحملت الموبايل وهرولت خارج غرفتي ، بحثت عنه في كل مكان، لم يحضر بعد، كم أنا غبية فالوقت مبكر، كان الفرح والخوف يستبد بي، قررت أن أنتظره على باب المستشفى، لم أكُ لأعلم أن عائلتي عثرت علي وتتربص بي، تلك الطلقة كالنار التي لسعت الحقيقة في آخر لحظة، أشعر بسقوطي المتفاجئ بي، الوقت يمر بطيئاً، لمحت أخي يهرب من بعيد، و صديقي يركض نحوي، ضمني بين يديه وهو يبكي، نادى الإسعاف كي يأتي مسرعاً، نظرتُ إليه من بين جراحي وألمي وابتسمت له، لمستُ وجنته وسألته:

– هل تتزوجني ؟.

– نعم .. نعم ..

شعرت لأول مرة بفرح حقيقي منذ فقدت حياتي وكأني استرددتها بكلمة واحدة، أمسكت الهاتف رغم ألمي ووضعت الخبر على الشاشة وأعطيته له وأنا أهذي ..

- انزع دثاري ..

لم يفهم قصدي لكنه نظر إلى الخبر بين يدي:

((ألقي صباح اليوم القبض على طبيب ذو سمعة جيدة بين الناس وبعد التحقيق معه اعترف بأنه يقوم بالاعتداء على الفتيات العذراوات أثناء خضوعهن لعملية جراحية عنده ويقوم بإصلاح ما يفعله بالتعاون مع قابلة نسائية و ...))

لم أمت اليوم، متّ مرات عديدة في مجتمعي، مت وأنا حيّة، وأعادني الحب للحظة رغم الفقد ورغم حرماني من حقوقي، لكن الروح تأبى إلا أن تفارق الجسد الذي مات أكثر من مرة بلا رحمة!

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

غريب في غرفتي

محمَّد محمَّد محروس – مصر

بعد يوم مرير من الجدال و المناهدة، فإنني أعمل كاشير بأحد محلات مستحضرات التجميل، حيث تدخل عليّ السيدة فتطلب و تجرّب و ترش و تشم و تمتعض فتبتسم فتطيل الوقت وأخيراً لا تشتري وتعدني بالعودة في وقت آخر للشراء، فتطير معها عمولة بيعي المرجوة و التي تحمّلت من أجلها هذه المناهدات، فأسمع بعدها ما لا يسرّني من مديري العابس وجهه و الواضع يديه في وسطه جزاءً لي لأنني قصرت في اصطياد الزبونة من وجهة نظره، أقسم لكم و له أنني لم أقصر و قد مارست عليها كل أساليب التلاعب للبيع التي علموني إياها، و لكن يبدو أنها على دراية بفك أعمال السحر جيداً.

فتحت باب غرفتي وحيداً فأنا لا أطيق أن أسكن مع الغرباء، يعانق أزيز مفصلات الباب أذني وتحتضن عيني الظلام الدامس للغرفة الخالية من مظاهر الحياة لأكثر من ثلثي اليوم، دخلت و أغلقت الباب خلفي لأستكمل الثلث الباقي من اليوم و أملأ غرفتي بمظاهر نصف الحياة و نصف الموت، حين تعلو أوركسترا النوم من حلقي و أنفي، جافى الضوء عناقي بالظلام عندما ضغطت مفتاح الإضاءة البيضاء الشاحبة بعدما تحسست مكانه على الحائط، ظللت أبحث يميناً و يساراً، أفتح الثلاجة ثم أغلقها، أتوجه للحمام وأجلس عليه فلا أفعل كما يفعل الناس، أقف وأنظر لوجهي في المرآة يميناً ويساراً فأدرك أنني أفعل العدم ذاته أفعل اللا شيء هرباً من اللا شيء، فتوجهت لصديقي الحنون الوحيد في هذه البيئة الغريبة إنه سريري، خلعت حذائي على باب

لغرفة، ودخلت بشراب قدمي المبلل بعرقهما، حيث كنت متعب، فلم أهتم إلا بالسرير وما هي إلا لحظات حتي عبئت الغرفة بأبخرة الحذاء والشراب، فأقسمت ضجراً أنني لن أتحرك من مكاني لإبعاد هذه الأبخرة و أقنعت نفسي أنها وسيلة جيدة لاتمام عملية الموتة الصغرى بأسرع ما يمكن، فأحتال على عقلي و أفكاره المؤرقة التي لا تأتي إلا على السرير، ثم التففت لأنام على جنبي الأيمن –مماشيًا للسُنّة!– أحسست بالاختناق من رائحة أبخرة حذائي فأقسمت مجدداً أنني لن أقوم بإبعاد الحذاء أو الشراب لكنني وقتها لم أعرف الأفعال هذه التي أفعلها نكايةً في من!، فوضعت جزء من غطائي علي أنفي لكي لا أشم الأبخرة مؤقتاً حتى أغفو تماماً، وقتها لن أشعر حتى بزلزال عشرة ريختر، وقبل أن يزورني النعاس، أبَى اليوم أن ينتهي هكذا فيبدو أنه أنكر عليّ العدد القليل من المتاعب الذي قابلته خلال اليوم فأقسم أن يزيدني القليل فإذا بباب غرفتي يُكسر على الأرض، فأنهض مفزوعاً واقفاً على مرتبتي الأرضية، فإذا به صبي صغير، ملامحه تغطيها التجاعيد، أكل الشيب من رأسه، يدخل عليّ غرفتي و يندفع ناحيتي، صرخت فيه حتى أخيفه:

-من أنت؟ اطلع بالخارج.

لا أخفي عليكم لقد شعرت بالرعب وقتها من هذا الصبي الشائب فقد كانت ملامحه على هدوئها مريبة مخيفة و مفزعة و هادئة، شئٌ في منتهى الغرابة، اندفع ناحيتي هذا المريب و ما إن وصل عندي حتى استدار بخفة ماداً رجله بحركة دائرية كأنه برجل الهندسة يرسم دائرة على فراشي، فافترشت أنا الأرض ساقطاً على ظهري و رأسي، لم أكد أفتح عيني حتى ركب صدري، و

لم تهمد يديه لطماً و ضرباً في و جهي و صدري، كانت يده على صغرها و خفة قبضتها إلا أنها كانت موجعة كأسياخ الحديد الأحمر الساخن ينهش الجلد، ثم يقول الصبي لائماً إياي:

-لماذا تفعل بي هكذا؟ لو أنا توقفت يوماً عما أقدمه لك لهلكت. بفضلي فقط أنت حيّ. لا أحد يهتم بك مثلي. إني لي عليك حق. إن زوجتك الجديدة هذه لعوب، وأولادك منها ليسوا مخلصين لك.

لا أخفيكم أنا لم أدرك أي كلمة مما يقول، ما كنت أشعر به فقط هي أسياخ اللهب التي يمدها في جلدي و لحمي من يده ضرباً و طعناً ، فزعني الرعب أكثر فقلت له:

-خذ كل ما تحتاجه، لدي قطعة ذهب كبيرة و قطعتان فضه كذلك، خذهم و اتركني.

ما أن أنهيت كلماتي إلا و زاد في قوة ضربي! و لم يكتفِ بسياط النار من يديه بل جعل رجليه تشارك في الانتقام مني! و ردَّ عليّ:

-هكذا تفرط في أولادك اللذين أنجبتهم من زوجتك "الغربة" هم كذلك لن ينفعوك.

لقد اشتد عليّ الألم، و هذا الصبي لا يتعب و لا يهدأ و لا يسرق و لا ينصرف، يبدو أنه يريد روحي. نعم، إنه يريد قتلي حتماً، تجرأت عليه و استجمعت فضل شجاعة – يا روح ما بعدك روح – فدفعته بكل ما أوتيت من قوة و ما أن دفعته حقاً حتى شعرت بالخوف من ردة فعله ، قلت له:

-من أنت؟ لماذا تكلمني هكذا و تقتحم علي بيتي؟

ارتطم في الجدار، و اعتدلت أنا من رقدتي هذه، فإذا به ينطلق نحوي من جديد بهمه، و الدم يسيل على وجهه من قوة الارتطام، أهذا بشر أم جن أم أي مخلوق هذا! أي ورطة وقعت فيها هذه يا رب! انقض على رأسي بمرفقه، فأسقطني أرضًا يسيل دمي، فاذا بأقدامه الفولاذية تتخطف بطني و ضلوعي، و أنا أتوه فلا يرحم ألامي ولا أعرف من أين له هذه القوة في إيلامي! يرد عليّ و يقول:

- فلتجعل "الغربة" زوجتك اللعوب العاهرة هذه تنقذك، لن أفلتك من يدي، لقد أهدرت حقي من أجل "الغربة"، ولسوف أقضي عليك قبل أن تقضي هي عليّ. لقد حرَمتني من كل أحبابي، ومنك أنت شخصياً، حُرِمت من حلمي القديم أن تصبح أنت لاعب كرة قدم، حُرمت من حبيبتي التي ما إن سافرت أنت و تزوجها رجل آخر بعد الضغط من الأهل والمجتمع، حُرمت من لمة العائلة و من صوت أمي، حُرمت من إخوتي و سندهم و دفئهم، و أنت أيها المغفل لا تبالي ويا ليتك تقف عند هذا الحد! بل إنك لا تتورع أن تُخرس صوتي عندما أقول لك إن أوامر مديرك هذا تتنافى مع مبادئنا و تربيتنا و أمانتنا متعللاً بأنك خدّام لقمة العيش.!

لم أفهم أي من كلمات هذا اللص الفيلسوف، فليرحمني من ضرباته و ألغازه.

سدد لي ضربة استقرت في كبدي، تيقنت بعدها انه سيقتلني حتماً، استجمعت ما بي من مروءة أساعد بها نفسي، و هجمت عليه، و اختلطنا في بعضنا، ضرباً و تسديداً، راكباً و مركوباً، ضارباً ومضروباً، و لم أشعر بمرور الوقت، فقط شعرت بنفسي و أنا ألاحق الأنفاس المختلطة بدم جبيني، فرفعت اللص لأوقعه على الكرسي في حركة حماسية تذكرتها فقد كنت ألاعب إخوتي

المصارعة على سرير أبي كل يوم خميس بعد مشاهدة حلقات الكابتن ممدوح فرج للمصارعة، و نزلت على رأسه بعصا غليظة كنت أخبئها تحسباً من سطو أي مجرم عليّ فأنا أعيش هنا وحيداً، كررت الضربات على رأسه حتى هشمتها وأصبح جسده بالٍ على الكرسي جثة هامدة غارقة في دمها، نظرت إليه و أنا أقول لنفسي:

– ماذا عساي أن أفعل ؟ كاد يقتلني؟ أنا لست مجرماً، وسأتصل بالشرطة حالاً.

فإذا بجرس هاتفي يرن، إنه المنبه ينبهني لموعد العمل، مكتوب على شاشة هاتفي:

"قُم فصاحب الشغل سيقطع رأسك"

كتبت رقم الشرطة لأتصل بهم، شقشق نور الصبح و ملأ الغرفة، رمقت اللص بنظرة على الكرسي، فإذا به يصغر حجمه ليكون في حجم التفاحة، جريت نحوه مستغرباً مفزوعاً أقول:

– هل تجعل نفسك مظلوماً وسراباً الآن ؟ سأتصل بالشرطة مهما حصل.

دققت فيه البصر، يبدو أنني أعرفه، شعرت بألم في صدري، نظرت على صدري، لأجده مفتوحاً بشكل دائري و أجوف لا أرى بداخله إلا لحمي الأحمر و يسيل مني الدم، لم أجد قلبي في صدري، نظرت على الكرسي رأيته فعرفته.

نعم، إنه هو، إنه قلبي الذي ظل طوال الليل يجلدني و أجلده فكانت إصاباته إصاباتي، حملت قلبي الذي ذبل ونزف وأرهقته وأرهقني، وضعته في صدري، لأدخل قدمي بعدها في حذائي النتنة

رائحته، وأنصرف إلى عملي في يوم جديد بلا نوم و لا راحة بعدما خُضت معركة هُزمت فيها و كنت لأهزم حتى لو اختلفت النتيجة. ففي كل الحالات مهزوم.

.

للقراءة أونلاين

اضغط هنا

الكتيب النقدي

اضغط هنا

لتصفح الكتيب النقدي

الطريق إلى القبة

إيمان أبو نعمة – فلسطين

كاد قلبي يقفز فرحاً ،عندما انبلج الصّبح وطلَعت شمس اللّه فأغرقت قلبي نورًا ومسحت عن روحي الحزن بألقها الجميل، فقد كانت شمساً بغاية الرّقة ، و كأنها أنثى تباهي الكون بجمالها ! كيف لا و أنا اليوم سأسير بخطوات مشتاقة نحو المسجد الأقصى بعد انتهاء فترة إبعادي عنه و, التي قضيتها أرابط مع أخواتي المرابطات عند باب السلسلة ,أو في أقرب منطقة يسمح لنا الاعتصام بها ,لنثبت لهم مدى تعلقنا بهذا المكان المقدس ,فمهما بذلوا ليبعدونا عنه ستظل قلوبنا تسير له بكل حب ،حينها قمتُ عن سريري لأزيح الستائر و أفتح النوافذ،ثم بدلت ملابسي مرتدية عباءتي و غطاء رأسي ،و بعدها تناولت فطوري الذي أعدته أمي على عجالة من أجلي ، ثم انطلقتُ نحو وجهتي أمرّ بشوارع القدس فأشتم عبق التاريخ من أزقتها ، و هو يختلط برائحة البهارات و الفلافل المقلي و الكعك المقدسي و هو يخبز بأفران الطين حتى تنتفخ أوداجه فيخرج منها منمشاً بالسمسم الأحمر ،بينما تعلو أصوات الباعة مانحة الحياة للمدينة البائسة رغم جمالها، ثم سرت في طريق طويلة معتدلة حتى بدأتُ ألمح القبة الذهبية و هي تشرق من بعيد ، و كأنها احتوت كل نعيم الدنيا فاستنزفت ببهائها كل معاني الجمال ، فلما رأيتها تزهر جمالاً عجلتُ خطواتي كي أرتمي في أحضانها، و أرتوي من مائها، و أستنبع الهناء من رؤياها ، فمن نظرة واحدة لها تسكن الروح و يهفو الفؤاد و كأنها ممر الروح للسماء ، فبين أكنافها نشأتُ مذ كنتُ صغيرةً ، ما زلت أذكر عندما كنت أجري في باحات المسجد الأقصى وراء حمامه الذي يفلح في كل

مرة بالهرب مني فألحقه حتى يطير ليعانق القبة الذهبية ، و ما إن أرمي له بعض الحبوب على الأرض حتى أراه و هو ينزل إلى الأرض ليلتقطها بنهم فأجلس بجواره و أراقبه بحذر.

إلى أن كبرتُ و صرت زيتونة صامدة ، أضرب جذوري في هذا الحِمى الذي ترعرعت فيه ، فتنقلت بين مصاطب العلم كفراشات الربيع حتى حفظت القرآن و تفسيره و تعلمت أحكامه ، و كرهتُ أولئك الذين يقفون على بوابات المسجد مدججين بالسلاح ، يصارعوننا في مقدساتنا و ينتظروننا على أبواب المسجد يفتشوننا و يعتقلون هوياتنا إلى أن ننتهي من الصلاة عائدين لبيوتنا، لطالما أدركتُ أنهم عابرون لا مقام لهم بأرضنا, فهم غثاء سيرحلون يوماً و سنبقى نحن، ، فما أشبه قلوبنا الصابرة بفلسطين و هي تتوق لأن تتحرر من كل غصة حزن ,و من كل خيباتها التي تستوطن ثناياها في ظل حياة لا تنصف طموحاتنا.

و بالرغم من أنني أتألم و أنا أرى بقعة الظلم تتسع بقدر صمت العرب عن انتهاكات الاحتلال للبشر و الحجر و تقاعس القادة عن نصرتنا ، إلا أنني فخورة بشباتنا ، فنحن نبني بيتا بدل الذي هدم و نزرع زيتونا بدل الذي قلع ، و لا نجعل أنفسنا لقمة سائغة لهم فتنام النسوة و قد غطين رؤوسهن خوفا من هجوم المستوطنين ليلا ، بينما يتناوب الشباب على حراسة أراضيهم خوفا من الحرق و التدمير من قبل المستوطنين ، و نستمر في الذهاب للصلاة في المسجد الأقصى و الرباط فيه لنحميه من اقتحامات الجماعات اليهودية المتكررة التي زادت حدتها في هذه الفترة ، و يحاول الشباب بأجسادهم العارية التصدي لها ، غير مبالين بقمع الاحتلال القاسي لهم و سجن بعضهم و جرح و قتل آخرين ، هذا الظلم القابع في بلدي هو الذي دفعني أن أدرس حقوق الإنسان لكي

أكون صوتا يثأر لكل المظلومين، فأستعيد حقوقهم مع أني أعلم أن لا مكان للعدل على هذه الأرض ، كانت هذه الأفكار تدور في خلدي ، و أنا أتجول في ساحات المسجد الأقصى أتأمل بناءه المتقن ، و ألمس زخارفه الهندسية الجميلة ، و قد طافت السعادة في نفسي و سكنتُ إليه كما يسكن الطير إلى عشه ، كيف لا و قد مال قلبي لهذا المكان كما يميل الغصن الأخضر على جدول الماء العذب ليعانقه ، كانت هذه الأفكار تتناوب على ذهني حتى رأيت مجموعة من المستوطنين تقتحم المسجد الأقصى ,ليقيموا صلواتهم التلمودية الجماعية غير عابئين بقدسية المكان و وجود أصحابه فيه تحفهم مجموعة من الجنود لحمايتهم فهجم المرابطون عليهم لطردهم و هجمت أنا و صديقاتي نطرد الإناث منهم إلا أنهم تكالبوا علي و أوجعوني ضربا ثم جاء مجموعة من الجنود و قيدوا يدي إلى الخلف بكل قسوة ، ثم اقتادتني جندية طويلة و ممتلئة الجسم إلى الجيب العسكري، و أدخلتني به عنوة فأبصرت عددا من صديقاتي بالجيب فأخذنا نتعاهد بيننا على الصبر و الثبات , فسمعتنا الجندية و أخذت تضربنا بعصا غليظة على أقدامنا و تنهرنا لأننا نتحدث , فساد الصمت بيننا حتى كسره حديث الجنود مع بعضهم باللغة العبرية و ضايقتنا نظراتهم الشرسة إلينا ، ثم انطلق الجيب يحملنا إلى أن وصلنا مركز القشلة بالقدس, و هناك لم يتم التحقيق معي بالبداية كما كنت أتوقع بل أدخلوني إلى زنزانة صغيرة لوحدي كانت رائحتها مقززة، فقد كانت المجاري تملأ بلاط الغرفة ، حتى أنني كنت جالسة طوال الوقت على كرسي مكسور الظهر ,و كانت العتمة شديدة في الغرفة إلا من ضوء باهت ينبعث من فتحة مطلة على الممر الخارجي ، حتى أيقنت بأنني بحمام و ليس بزنزانة , فقد كنت أصلي و أنا جالسة

على الكرسي أرفع طرف ثوبي عن الأرض حتى لا تصيبني نجاسة ، كنت أعرف أوقات الصلاة من الشمس و توقعاتي بالوقت لأنهم صادروا جوالي و ساعتي قبل دخولي إلى هذا المكان، أمضيت في هذه الغرفة يومين ثم انتقلت للتحقيق ، و في غرفة التعذيب تعمدوا أن يخرجوا من أفواههم النتنة كلاما بذيئا ، و يضربوني على مناطق حساسة ، و يطفؤون أعقاب سجائرهم في جسدي، أمضيت بالتحقيق يومين لم أعرف بهما النوم من شدة الإنارة التي بالغرفة ، ربما كنت أنام دقائق لا تتعدى الساعة من شدة الوجع ، ثم أستيقظ على أصوات صرخات السجينات الأخريات ، لم يكن عندي ما أقوله للمحقق فأنا محفظة في المسجد الأقصى و هذا عملي ، و كنت أدافع عنه من اقتحام المستوطنين و هذا واجبي, إلى أن انتهت فترة التحقيق و انتقلت إلى زنزانة بها ثمانية أسيرات في مساحة ضيقة و أسرة ذات طابقين ، في ركنها الأيمن طاولة عليها الأوعية و تحتها سلال تحتوي على بضع حبات من البصل والبندورة و بجانبها مغسلة مقطوعة اليد ، بدا لي أنهم يسمون ذاك الركن بالمطبخ ، و في الركن الأيسر من الغرفة ستارة خلفها المرحاض ، كانت الغرفة على ضيقها و كثرة من فيها أحسن حالا من سابقاتها ، جلست الأسيرات معي جلسة تعارف بسيطة ، دارت أحاديث التعارف بيننا بالإضافة لحديثنا عن حال المدينة المقدسة, و هن أيضا أطلعنني على وضع الأسيرات في سجون الاحتلال ,مما جعلني أستشعر مضاضة الواقع الذي يعيشونه ، فلتخرس كل الأبواق التي تنادي بحرية المرأة و حقوقها، متناسين بذلك حقوق الأسيرات اللاتي يقبعن في سجون العدو، فقد قالت لي سها : "لقد دخلت السجن طفلة و سأخرج منه فتاة يافعة بعد سنوات فلا أنا عشت طفولتي و لا استمتعت بشبابي ، بل سأخرج و أنا أحمل ذكريات

أليمة تهاجمني كلما أغمضت عيني" ،بينما قالت إسلام و هي تتألم من شدة الوجع:" اعتقلوني عندما كنت أسير على مقربة من حاجز عسكري و قد أصبت على الحاجز لأنهم اشتبهوا بأنني سأقوم بعمل عسكري ضدهم ,و ها أنا أعاني من الإهمال الطبي مما يزيد من وجعي و آلامي "، ثم تنهدت أميرة و هي تقول: "لقد اشتقت لزوجي و أولادي ترى كيف صار حالهم بعد ست سنوات من الاعتقال لقد صاروا الآن شبابا و أنا بعيدة عنهم و قد مُنعوا من زيارتي منذ دخولي للأسر. "

ثم أخبرتني هبة عن قصتها قائلة:" عندما تم اعتقالي كنت في الشهر الثامن من الحامل و لم يعبأ الاحتلال بكل الأصوات التي كانت تنادي بحريتي لوضعي الخاص، بل إنهم جعلني أضع مولودي و أنا مقيدة على أسرة الموت في مستشفى السجن، و أكملوا إجرامهم بحقي فجعلوا طفلي يتربى بين جدران السجن قُرابة العامين حتى خرج من الأسر و بيده كسرة خبز مغمسة بالمعاناة، و ها أنا أنتظر أن أستنشق الحرية قريبا لألتقي به ،ثم تابعت قائلة و على وجهها ابتسامة كسيرة : "لقد تفاجأ طفلي يوسف عندما خرج من السجن و وجد بأن هناك فضاءات كثيرة أوسع من جدران السجن الأربعة، و أن الهواء ليس له رائحة عفنة، و أن الأرض فيها الحشائش و الأشجار و الزهور و ليست أرضية خشنة ، و أن الطعام فيه ما لذّ و طاب و ليس معلبات و خبزا يابسا، ثم وجدتها تكمل حديثها بكل قوة و تقول :"لقد صقلَ السجن شخصيتي فأصبحت أكثر بأسا و قوةً و جرأةً و سأسعى عندما أخرج بعد شهرين أن أدافع عن حقوق الأسيرات و أطلع العالم على مظاهر انتهاك حقوقهن داخل القضبان، فالسجن يا عزيزتي يجعلنا أكثر عزةً و شكيمة و أعلى

همة و أكثر سعيا للدفاع عن حقوق الأسرى و مطالبهم ،لأننا و إنْ خرجنا من السجن فقلوبنا مازالت معلقة بإخواننا الأسرى و نشعر أن من واجبنا نصرة قضيتهم و توعية العالم بها."

و مثل هؤلاء الشموس التي ضجت بهن السجون الكثيرات، و كل واحدة منهن لها ألف حكاية مطرزة بالدماء و الدموع ,و لكنهن لم يجدن من يصغي لهن من الذين ادّعُوا انشغالهم بحقوق المرأة و حريتها.

انتهت أحاديث المساء و ذهبت كل واحدة منهن للنوم ، أو بالأصح لمراجعة شريط ذكرياتها مع عائلتها و لأحلام اليقظة الجميلة المزينة بالحرية المأمولة، كانت ليلة قاسية جديدة ، توغلت فيها ببحار التفكير , و أدركت حينها أنني أمام تجربة قاسية سأحلم بها بالحرية مع كل إشراقة شمس تختبئ خلف أسوار السجن فلا نراها ،بل نشعر بنورها و هي تطرد الظلام بعيدا عن الكون.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

الموظف والتهمة

محمَّد واحي – المغرب

وأخيراً قرّرتُ أن أعتدل في جلستي، لآخذ دفتراً مما خلفته الدراسة، ربما كتبت شيئاً أنسى به وحدتي الخانقة وعدم قدرتي على التركيز في مذاكرتي، لقد أصبح الامتحان وشيكاً، وأنا لا أبذل أي جهد له.

أنا الآن أطالع إحدى روايات نجيب محفوظ "بداية ونهاية" وبعد أن أعيتني القراءة ارتأيت أن أكتب قصة، ولكن ما هي هذه القصة التي سأكتب؟ قفز إلى ذهني بسرعة رجل يجلس إلى مكتبه غارقاً بين أوراق العمل، لا يقطع صمته إلا صوت شرطي يدخل عليه، في خلوته ليأمره أن يتبعه، بعد أن.... ماذا بعد؟ ما الذي سيحدث؟ هذا فقط ما تخيلته وعصافير بطني تزقزق، الجوع كافر.

تراءت لي عدة أسئلة محيرة بعد أن أردت نبذ هذه البداية التي لم أجد لها أي نهاية: ما الذي اقترفه ذلك الموظف المسكين ليساق هكذا إلى التحقيق؟ ما ذنبه أن أهجم عليه في سكينته لأكتب عنه قصة، دون أن أعرف ماذا فعل؟ وهل هو بريء كما يظهر لنا؟

– حسنا أيها الشرطي ما الذي تفعله؟

– سألقي القبض عليه كما أمرتني في بداية قصتك!

– توقف، ألا ترى سكينته؟ هل ستهجم عليه هكذا؟

–أنا وراء الباب لا أرى شيئاً!

– أه، نسيت أنا لم أسمح لك بالدخول بعد.

– حسناً وما الذي تنتظره؟ دعني ألقي القبض عليه، لننتهي من هذه المسألة، فلدي مشاغل كثيرة غيرها.

– ليس الآن، تريث قليلا ريثما أسكت جوع بطني وأفكر فيما سأكتبه فيما بعد!

– ولكن...

–لا تعقب علي!!

– لك ذلك أيها الكاتب.

عدت بعد ساعة، والشرطي يرمقني بعين شزراء، وقال:

– ما الذي أخرّك؟!

– كنت أسكت عصافير بطني!

– ماذا عن عملي المتراكم؟ من سيقوم به؟

– حسناً كفانا جدالاً أيها الشرطي، انصرف! ودعني أفكر في هذه القصة.

– ألن تسمح لي بالقبض على هذا المجرم الوضيع؟

– انتبه لألفاظك! ألست ممن يعمل بمقولة "المتهم بريء حتى تثبت إدانته"؟ هيا اخرج من بين أسطر قصتي الآن!

–مهلاً، ألم تجعله مجرماً أيها الكاتب؟

– أنا؟ ما عاذ الله أن أنزل ظلماً بيّناً على مثل ذلك الشخص الوديع.

– أنت كاتب القصة، وتحديد دور كل شخصياتها منوط بك. وبما أنني هنا، إلا وقد جعلت ذلك الموظف يقوم بجريمة ما، وكلفتني بالقبض عليه. وهذا هو المكتوب في هذه المذكرة أتريد قراءتها؟

– لا.. لا.. أحتاج لمثل تلك الورقة لأقرر أنه بريء أو مدان، ففي الأخير أنا الكاتب وهذه قصتي. هيا انصرف وإلا ندمت!

– حسناً كما تشاء أيها الكاتب فعلى العموم أنت هو المتحكم فيما يحدث.

مخبول هذا الشرطي لا يعرف حتى ما هي الجريمة التي قام بها الموظف ويريد القبض عليه، بالطبع لن أسمح له بذلك، فأنا ضد الظلم... رغم أنني كنت سأظلم الموظف، لولا التهمة التي لم أجد لأسندها له.

– لقد أنقذتك التهمة أيها الموظف!

– أية تهمة؟ من أنت؟ وكيف دخلت مكتبي؟

– ألا تعرف حقاً؟؟

– لا..

– حسناً، لا زلت لم أقرر بعد!

– وما هي صفتك لتتهمني؟

– خمن...!

– أحد أقرباء زوجتي الذين تلوذ إليهم بعد أن نتخاصم؟

– لا أنا الكاتب.

ترتسم علامات التعجب على وجه الموظف ويسألني في ذهول:

– كاتب ماذا؟؟

– القصة.

– أية قصة؟

– لم أحسم فيها بعد، ربما قصة حياتك كلها! انتظر قلت أنك وزوجتك متخاصمان؟

– أجل!

– هكذا إذن... تخاصمت مع زوجتك، وغلى دمك، ثم حملت كأس زجاج وضربتها به على وجهها، فتهشمت إحدى أسنانها، وانتفخت مقلتها، وأحاطتها هالة زرقاء مفزعة، بعدها تذهب إلى المشفى...

يقاطع الموظف كلامي:

– لتأخذ شهادة طبية وتجري مهرولة إلى أخيها، تجهش بالبكاء على صدره، وتحكي له عما فعلته بها، ويقوم هو برفع شكوى ضدي عند الشرطة، التي ترسل بدورها من يقوم بتكبيلي، كأني ارتكبت جريمة قتل. أليس هذا ما ستكتبه؟؟

– أجل.. كيف عرفت كل هذا؟

– بوسعي أن أخبرك عن أسماء القصص التي ستظهر مستقبلاً... أنتم الكتاب من طينة واحدة، تنتظرون فقط متى تقع شخصية بين أيديكم لتذيقوها أسوء عذاب.

– حسناً يمكنك التزام الصمت الآن، ما ستصرح به يمكن أن يستخدم ضدك في المحكمة! أنت متهم، ويحق لك فقط أن تبلع لسانك!

– انتظر أليست هذه الجملة خاصة بالشرطي؟

– آه، اعذرني فقد نسيت نفسي وسط زحمة الأحداث، أيها الشرطي!

يظهر الشرطي فجأة حاملاً أصفاده:

– هل سرقت جملتي أيها الكاتب؟

– هه لقد أخذني القليل من الحماس، هيا كبّل هذا المجرم! ولنذهب إلى قسم الشرطة.

– حسناً، أيها الموظف يمكن التزام الصمت وكل ما قاله الكاتب فيما سبق...

بدأ الموظف في الصراخ بأعلى صوته أنه بريء، ولم يضرب زوجته أبداً، حتى أثار صراخه بقية موظفي الشركة، ليطلوا من أبواب مكاتبهم، يستطلعون الأحداث التي تجري أمامهم، ويتهامسون من وراء ظهر صديقهم الذي اعتقل في مكان عمله. هكذا هم أغلب الناس، دائماً يتحلقون حول الفضائح، وكأن لا شأن لهم في الدنيا سوى معرفة فضيحة جديدة!

في الطريق سألت الشرطي:

– هل عرفت الآن التهمة التي وجهتها له؟

– ولكنها ليست تهمة مهمة، ولا تستحق منك أن تكتب عنها قصة، تجعل القارئ مستمتعاً؛ ضرب زوجته كأي رجل ذي عقلية ذكورية، ليثبت للجيران ولنفسه أنه "سي السيد"، المسيطر على مجريات الحياة، الألفا وسط قطيعه. ولسوف يسترضيها لتعود معه إلى البيت كأنما شيئاً لم يحدث.

نطق الموظف من خلف السيارة:

– لكني لم أضرب زوجتي، ولن أضربها أبداً، ما هذا الـ.....

لنقاطعه أنا والشرطي معاً:

– اصمت أنت!

ثم توجهت بحديثي للشرطي الذي تجاوز علامة المرور الحمراء، في خرق واضح للقانون:

– ما الذي يجعلك واثقاً أن هذا ما سيحدث؟ فلربما غيرت من مجريات الأحداث!

– إني أفهم في أمور الناس أفضل منك.

– أنا الكاتب بيدي أن أقيم الدنيا وأقعدها على رأسه.

– بل ستسأم منا حين لن تجد أوراقاً بيضاء تنهي فيها قصتك، وتفرقنا كأنما شيئاً لم يحدث، حتى أن حل العقدة لن تسرده هنا! لكنك أدرى بأحداث القصة، فأنا لست سوى شخصية فيها تنفذ أوامرك، وهو أيضاً (مشيرا إلى الموظف) فإن جعلته مظلوماً تحتم عليه أن يلعب دوره بإتقان حتى النهاية، أما إن جعلته مداناً فسيكون مرغماً على أن ينكب على دوره بكل ما أوتي من حنكة ليتقنه، لا معرفة منه أنه ممثل جيد، ولكنه يمتثل لأوامرك فقط.

ران صمت رهيب في السيارة، لا يسمع منه سوى صوت محركها، يمخر عباب الجو، صاعداً إلى فوق، تاركاً سحابة من الحزن تخيم على الجميع. بالتفاتة مني إلى المرآة التي أمامي وقع بصري على وجه لا يمكن أن يكون لمذنب، حقاً لا يمكنني أن أجعل هذا الوجه البريء مذنباً، فرغم أن مهمة إنهاء هذه القصة بنهاية ترضي ذوق قرائي، إلا أنني تعاطفت مع الموظف. يجب أن أسيطر على مجريات الأحداث، التي بدأت تنفلت من بين يدي، حتى مخيلتي تعجز عن الإتيان بنهاية مرضية لي ولكم.

لم أنتشل من دوامة تفكيري، إلا حين أحسست بالسيارة تركن قرب مخفر الشرطة، لنلجه ثلاثتنا واحداً تلو الآخر. كانت الزوجة هناك في بهو الاستقبال. رمق الموظف المرأة وبجانبها أخوها، فعلا محياه القليل من الخوف، أهو من ذلك الأخ المفتول العضلات؟ أم من مما ستؤول إليه القصة؟ لكنه حتماً مظلوم فلا تظهر أي سن مكسورة لدى الزوجة التي تبتسم بسخرية.

استدعاهم الشرطي إلى مكتبه، ثم وجه كلامه للواقفة بجانب الشاب الجبار:

– أعيدي سرد الحكاية كما أخبرتنيها من قبل!

أجهشت بالبكاء، كأي امرأة، وراحت تسرد الأحداث التي نعرفها جميعاً، تماماً كما سردها عني الموظف سابقاً. وفي محاولة أخيرة مني لتصحيح الأحداث التي بدأت تخرج عن سيطرة قلمي، صرخت بأعلى صوتي:

– لا تصدقها أيها الشرطي!

لم يسمعني فهو غارق في حمى التحقيق معهما، وأنا خلف الورقة أحاول إيجاد حل للمأزق الذي أدخلت فيه قصتي. يجب أن أضع حداً لهذا الشجار… هيا أيتها المخيلة البائسة اعملي! انتبهت قليلا لما يقال:

– أنت تكذبين لم أضربك…

– بل فعلت…

– لا لم أضربك…

– بلى…

– لا….

– بلى…………

جلت ببصري بينهما وبين الشرطي، فنظر نحوي مستنجداً، لعلي أتدخل في اللحظة الأخيرة لأفض هذه العقدة. صرخت بأعلى صوتي:

– أصمتا!

رنّت صرختي في الجدران حتى أفزعت ذلك الجبار، ومزقت الورقة بجرة قوية من القلم. ثم بهدوء سألتهم:

– من أنا؟

– الكاتب.

سألتهم مرة أخرى:

– ومن أنتم؟

– شخصيات قصتك...

سألتهم مرة أخيرة:

– لمَ أنتم هنا؟

ليردوا بخنوع:

– لنمثل أدوار الشخصيات التي أسندتها لكل واحد منا...!

ثم بحزم وجدية، صرخت فيهم:

– اسمعوني إذاً جيداً، أدواري هي كالآتي: أنتَ بريء، وأنتِ كاذبة مفترية ككل النساء اللواتي لا يستسغن سقوط كلمتهن إلى الأرض.

صاحت المرأة مدافعة عن رأيها:

– لا لست كاذبة!

– إذن أرينا عينك لنتأكد!

داهمها ارتباك –بعد جملتي– حاولت أن تخفيه لكنها لم تستطع، قفزت يد الشرطي بسرعة إلى العصابة التي تغطي عينها، وصرخت ألماً لما انتزعها بقوة؛ لم تظهر أية زرقة حول أي من عينيها، خفضتهما إذ لم تكن أقل خجلاً من أخيها الجبار الذي تلاشت قوته في رمشة عين، وأصبح وجهه كبندورة مشوية. خاطبني الشرطي شامتاً:

–ألم أخبرك أن أحداث قصتك متوقعة؟ لقد أضعت وقتي، ووقت قرائك فقط!

أجبته بضحكة خبيثة:

– ومن قال لك ذلك؟ فأنا لم أنهِ القصة بعد!

وقبل أن يفتح فمه ليجيبني استحال بياض مقلة الزوجة حمرة، وأحاطت بعينها زرقة مائلة إلى السواد، بينما تمخض ثغرها عن ابتسامة لتظهر أسنانها المتراصة، وبينها إحداهن مكسورة كأنها تقول لنا: "ألا تريان؟ أنا مكسورة."!

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

شروق... إلى روحها

عادل الجمال – مصر

استيقظت كما عودتها امها مع آذان الفجر تصلي وتقرأ ما تيسر لها من كتابها ثم تجلس في انتظار إفطار امها الذي هو عبارة عن طبق من اللبن وبه عيش فلاحي مفتت وبعض السكر احيانا ما كانت تأكله إلا إرضاءً لأمها وأحيانا من الجوع الذي تسلط عليها قبل النوم ولم تجد في البيت ما تقتله به ، ولكنها مع الوقت تعودت انه لا يوجد بديل له فرضيت وقنعت واعتبرت ان هذا الطبق مثله مثل تلك الجلابية وذلك البنطلون وهذه المرتبة وهذا الغطاء المُرَقع لا يمكن استبدالهم مهما مر الزمن الا بعطف من هنا أو صدقة و زكاة من هناك – في مكانٍ قل ان ترى فيه من هم في حال غير حالها.

تناولت شروق إفطارها ولم تنس ان ترسم ضحكتها على شفتيها في وجه امها التي تجلس أمامها تارة وخلفها تارة اخرى تضفر لها شعرها البني الناعم ثم تربطه بحبل صغير معقود عليه حبات خرز تتلألأ في ضوء لمبة الجاز التي تنير المنزل ويتجولون بها من غرفة إلى غرفة حتى يخرج عليهما النهار من ثباته الليلي الطويل ليضيء باقي المنزل طيلة اليوم ثم يعودون لضوء اللمبة في الليل حتى ان شروق اعتادت على المذاكرة نهارا حتى تعطي لأمها حرية التنقل باللمبة ليلا اذا ما أرادت التحرك.

انتهت الام من شعر شروق وقبلتها على جبينها واعطتها خمسون قرشا ثمن عبورها المعدية التي تعبر بها بين ضفتي الترعة ذهابا وايابا كل يوم من وإلى المدرسة في القرية المقابلة لقريتهم ووضعت لها في حقيبتها القماش بجوار الكتب كيساً به رغيف يحتوي على قطعة بطاطس مهروسة ومفروده بطول الرغيف، قبلت شروق هي الأخرى والدتها وابتسامتها لا تفارق شفتيها فهي الشيء الوحيد الذي تملكه لتعطيه لها وكأنها تقول لوالدتها لا تحزني فأنا راضية ووجودك هو الحياة وليس شئ اخر وكانت أمها في هذه اللحظة من كل يوم تحتضنها وكأن هذه اللمسة ستكون الاخيرة بينهما ثم تدعو لها وتخبرها

بالمكان الذي ستذهب اليه بعد المدرسة لتعمل وتحصل على بعض الجنيهات يسدون بها احتياجاتهم من أطعمة ودواء لوالدها طريح الفراش الذي أصابه العجز ولم يعد قادرا على الحركة بعدما تمكن عجز الكبد عن أداء وظائفه منذ عدة شهور وأصبح في حاجة ملحة لزراعة آخر ولم يستطع مجاراة المستشفيات والأطباء في احتياجاتهم حتى تمكن منه اليأس وتمكن منه المرض تماما وأصبح يدعو اللّه نهارا وليلا أن ينهي حياته حتى يخفف عبء وجوده على زوجته وابنته الوحيدة ذات الأحد عشر عاماً.

خرجت شروق في السادسة صباحا لتمشي ما يقرب من كيلو متر حتى المعدية لترى عم محمود يقترب بألته المتهالكة يشد بحبلها المتهالك من ناحية ودافعا بقدمه في عكس اتجاه الشد لتسير المعدية في اتجاه البر الاخر وما أن لمحها حتى قال لها –صباحك منور زي وشك يا بنتي – وقابلته هي بابتسامتها الرقيقة الراضية التي لا تفارق فمها أبداً، ركبت شروق وظلت واقفة لمدة نصف ساعة ورعشة برد الصباح تكاد تُصِّلب مفاصلها حتى تمتلئ المعدية بزملائها في المدرسة وسيدات ورجال يحملون على رؤوسهم أسبته وأجوِلة مملؤة بالخضروات والجبن والبيض لبيعها في السوق حتى لم يعد يوجد موضع قدم بالمعدية التي بدأ عم محمود في جر حبلها مع الدفع بقدمه في الجهة الأخرى فسارت وهي تتأرجح بركابها كما لو كانت تبحر في موج عالي حتى ان الركاب كانو يمسكون ببعضهم البعض خوفا من الوقوع في المياه الباردة والغرق في هذا الجو الذي تكسوه الشبورة المائية الكثيفة في هذا الوقت من كل يوم في فصل الشتاء .

وصلت المعدية إلى البر الأخر بسلام ووقف عم محمود على طرفها حاملا قطعة خشبية عريضة وضع طرفها على حرف المعدية والطرف الاخر على البر ليبدأ الركاب في النزول وهو واقف على البر واضعا قدمه على اللوح الخشبي ليثبته وكل راكب ينزل يعطيه ربع جنيه ثمن التوصيلة وعبرت شروق بعد ان مد إليها يده ليؤمن عبورها وقد شعر ببرودة جسدها ورجفة أوصالها وهو يمسك بيدها الصغيرة بقوة لتمر فوق اللوح وعندما مدت يدها له بأجرته قال لها في حنان وأبوّه –اشتري لنا حمص لنأكله معاً بعد المدرسة –

فتبسمت معبرة عن فرحها وامتنانها فكم تحب الحمص وسوف تشتري من المدرسة شيء مثل زملائها وهو ما لم تتعود أن تفعله إلا قليلاً.

سارت شروق مع زملاءها في المدرسة ومن أمامهم وحولهم حشد من أهل القرية في طريقهم إلى السوق وجميعهم يسيرون في صمت وانتباه حتى لا يقعون في الأرض فلا يسمع منهم او عنهم إلا طرقعة أحذيتهم البالية التي تلتصق بالوحل الذي يملأ الطريق وهو أمر اعتادو عليه طوال فصل الشتاء الذي لا ينقطع فيه المطر ولا يخلو فيه الطريق من الوحل.

بعد معاناة من البرد والوحل لمسافة كيلو متر أخر وصلت شروق وزملائها إلى المدرسة بينما أكمل الحشد مسيرته إلى السوق وفي نهاية اليوم المدرسي ذهبت لشراء الحمص ووضعت القرطاس في حقيبتها وخرجت من بوابة المدرسة يملؤها الفرح فقد اشترت شيء كما أنها كعادتها حصلت على الدرجة النهائية في كل امتحانات الشهر وأثنى عليها كل المدرسين وصفقوا لها مع كل تلاميذ الفصل ، كانت تشعر بعد شراء الحمص وتذكرها تصفيق أقرانها لها اليوم أنها تملك الدنيا كلها في يدها وسارعت في خطواتها يملأ قلبها السعادة حتى تلحق بزملائها في مزرعة فراخ الحاج علي الذي كانت معظم عمالته من أهل القرية من الشباب والأطفال والشيوخ جميعهم يعملون باليومية التي لا تزيد عن أربعين جنيه لمن يقومون بالتحميل والتنظيف وثلاثين جنيه لمن يقومون بإطعام الفراخ وكانت شروق ومن في سنها ممن يقومون بعملية الإطعام ورغم ضعف الأجرة إلا أن الحاج علي كان يوفر لهم وجبة غذاء من الفول والطعمية والجبن والعيش الفلاحي وكثير من الخيار والطماطم وكان كل شهر يعطي لكل عامل أو عاملة فرخة من المزرعة على سبيل الصدقة وكان يزور كل من يتغيب عن العمل واذا كان مريضا وفر له الدواء ولم يمنع عنه أجرة اليوم أيضا وكان ذلك سببا في حب الناس له ودعائهم المستمر له بالصحة والستر.

في ذلك اليوم كان الجو باردا وممطرا بشدة وكان العمل في المزرعة زائداً عن الحد حيث كانت الطلبات الخارجة من المزرعة كثيرة كذلك كانت العربات القادمة المحملة بالأعلاف ولم ينتهي العمل إلا في السابعة مساءً وكان الجو مع شدة البرودة وكثرة الأمطار شديد الظلمة أيضا وعند خروج العمال وفر لهم الحاج علي سيارة نصف نقل لها صندوق ليس له سقف لتوصلهم إلى المعدية ،ركبت امرأتان مسنتان بجوار السواق بينما ركبت شروق وزملاءها والمتبقي من الرجال والنساء في صندوق السيارة ورغم أن المسافة من المزرعة إلى المعدية لا تتجاوز كيلو ونصف متراً إلا أن السيارة قطعتها في نصف ساعة تقريبا بسبب شدة المطر وكثرة الوحل الذي كاد أن يغطي عجلات السيارة وكادت أن تنزلق بهم في الترعة أكثر من مرة لولا انتباه السائق.

وصلت السيارة بشق الأنفس إلى المعدية وقد كان كل ركاب صندوق السيارة في حالة يرثى لها من شدة المطر فقد كانوا كالخارجين لتوهم من الترعة المجاورة لهم وقد اختلطت ملابسهم المبللة بالوحل الذي غُرِسوا فيه بعد نزولهم من السيارة ثم أخذو ينادون على عم محمود صاحب المعدية الذي كان مختبئاً في عشته المجاورة لشط الترعة بجوار المعدية.

خرج عم محمود من عشته وفي يده اللمبة الجاز يسترشد بها طريقه ويرى بها زبائنه في ذلك الوقت الذي اعتاد فيه عدم وجود زبائن، فلما لمح شروق معهم اطمئن لهم وسار يجاهد ثقل وزنه وضعف قدميه التي تجاهد الوحل الذي ألتصق بحذائه حتى أن رجليه خرجتا منه وسار حافيا لا يرى إلا خطواته الضعيفة المتثاقلة وعندما أقترب منهم قال لشروق – لولا الحمص ماكنتش خرجت من العشة أبداً– فتبسمت له كعادتها وأخرجت قرطاس الحمص كما اشترته من المدرسة ووضعته في جيبه فأحنى ظهره حتى أقترب من وجهها وقرب إليها اللمبة الجاز ليستطلع ملامحها وقال لها إنه لكي فليس لدي أسنان قادرة على أكل الحمص منذ سنين ووضع القرطاس في حقيبتها مرة أخرى ونظر لوجهها فاستطاع أن يميز ابتسامتها

المعهودة رغم حبات المطر الثقيلة التي كانت ترتطم بوجهها وتُخفيه، ثم مد اللوح الخشبي أوله عند

طرف شط الترعة والطرف الاخر عند طرف المعدية وثبته بقدميه الضعيفتين بكل ما أمتلك من قوة وصعد

الركاب إلى المعدية بصعوبة ولم يتبق إلا هو وشروق فحملها فوق كتفه وسار على اللوح الخشبي ببطء

وحذر شديدين وما كاد يصل إلى حرف المعدية حتى انزلقت قدماه فسقط وشروق في الترعة ، وبينما كان

الركاب يفتشون عنهما في المياه شديدة السواد في الجو الممطر شديد الظلمة كانت أمها وهي في

انتظارها على الضفة الأخرى تقف بقلب منقبض تستشعر دفء حضن ابنتها صباح ذلك اليوم.

للقراءة أونلاين

اضغط هنا

الكتيب النقدي

اضغط هنا

لتصفح الكتيب النقدي

تـخـبّـط

هشام أجران – المغرب

– جلس ينتظر الحافلة، كما اعتاد أن يفعل كل صباح ومنذ زمن طويل.

– البرد قارس اليوم.

تحدث رجل واقف قربه. تأمل محدثه وغاص في تفاصيل وجهه. بدت له لحيته البيضاء التي أحاطت بأنفه الأفطس غير متناسقة مع لون بشرته الشديد السمرة، وكانت عيونه السوداء، التي تربعت تحت حواجب كثة، حادة النظرات.

التحقت فتاة بالمكان، وجلست على كرسي محاذ له. رموشها السوداء الطويلة فاتنة، فكأنها تحرس تلك العيون العسلية الواسعة. وابتسمت الفتاة لتميط اللثام عن صف من اللؤلؤ الأبيض الناصع الذي امتزج بحمرة الخدود المتوردة، فجعلت منها الألوان والأشكال آلهة جمال.

سرعان ما التحق شاب بالمكان، توردت بشرة وجهه البيضاء بدماء الصحة والحياة، وتناثرت خصلات شعره المبتل، بفعل قطرات المطر، على جبينه العريض، وبرقت عيناه الواسعتان ببريق القوة والشباب. دخل بخطوات رشيقة، وارتمى على كرسي شاغر قرب الفتاة، التي أصبحت في لحظة تتوسط شخصين: رجل وشاب.

توقفت الحافلة، فاندفع الأربعة نحوها. احتل الشاب مقعدا قرب الفتاة، وجلس الرجل الأسمر في مقعد قرب السائق، بينما انزوى هو في مكان يسمح له برؤية رفاقه السابقين، وخاصة الشاب

والفتاة، اللذين انخرطا في حديث ذو شجون، تقطعه ضحكاتهما الصافية من حين لآخر، ضحكات لها وقع الطعنات في فؤاده.

بدأ الركاب يتكاثرون. تندفع الأجساد داخل الحافلة بعنف، لينقض الأقوياء على المقاعد الشاغرة، ويركن الآخرون للوقوف. امرأة تقترب منه، وترمي بجسدها المكتنز على المقعد الشاغر قربه. تعالت أنفاسها، فكأنها خارجة للتو من حلبة قتال شرس. تأمل وجهها الدائري، فلم يستطع تمييز ملامحه، كتلة كبيرة من اللحم والشحم غطت كل تفاصيل الوجه. انتابه شعور بالاشمئزاز، ولعن حظه السيء الذي جمعه بهذه المرأة الذميمة.

أمامه وقف رجل، فرد قامته الطويلة بكل شموخ، ومنحه المعطف الأسود الأنيق، وربطة العنق الفاخرة، والحذاء الجلدي اللامع، هيبة ووقاراً وجاذبية. سرح ببصره في وجه الرجل المتأنق، وجه صاف تبدو على صاحبه آثار النعمة. وتساءل في قرارة نفسه: لماذا رجل مثله يركب الحافلة؟ لكنه التمس له الأعذار: ربما أصاب عطب سيارته الفخمة؟ أو لربما تغيب سائقه الخاص بدون إذن مسبق؟ أو لعلها رغبته الخاصة من باب التواضع وعشق البساطة؟ ارتاح وهو يجول بعينيه في قسمات الرجل المتناسقة، لكن صوت المرأة بجانبه انتشله من بحر أحلامه:

– لو سمحت، هل يمكنك أن تشرح لي المكتوب؟

التفت نحوها بغضب، فلوحت المرأة بورقة أمامه. فكر أن يتجاهل طلبها، ويشيح بوجهه بعيدا، لكن إلحاح المرأة جعله يذعن مرغما.

كان الأمر يتعلق برسالة قصيرة كتبت بخط أنيق. تنحنح ليزيل بحة لم يعرف متى سكنت حباله الصوتية، ثم قرأ:

" أمنا العزيزة (آمنة):

بكل حب وتقدير، نبعث إليك بخالص تحياتنا. لقد اجتمعنا بعد غياب طويل، وقررنا أن نزورك في أقرب وقت، لنرد لك ولو بعضاً من جميلك علينا.

أبناؤك المخلصون: خالد وطارق وهبة وشهد."

بدا التأثر على وجه المرأة التي لم تستطع كبح دموعها. وتغلبت بعض مشاعر الإنسانية على الرجل الذي لم يتحمس سابقا للحديث مع المرأة. فخاطبها بتردد:

– هل اشتقت لأبنائك؟

مسحت المرأة دموعها، وأجابت بصوت يغلب عليه حنان جارف:

– ومن لا يشتاق لأبنائه؟ في الحقيقة هم ليسوا أبنائي، لكنهم أكثر من أبنائي.

لم يفهم الرجل شيئا، وظن للحظة أن المرأة تهذي، فندم على مشاركتها الحديث. لكنها أضافت بنفس الصوت الحنون:

– لقد تكلفت بتربيتهم وهم مازالوا رضع. كنت أعمل في جمعية لرعاية الأيتام، وكانت مهمتي رعاية هؤلاء الأربعة، فكنت أمهم وأكثر لثمانية عشرة سنة. وحين تقرر مغادرتهم للدار، أخذتهم إلى بيتي، وتحملت الكثير من المصاعب والمتاعب والمشاق من أجلهم. كان بإمكاني أن أتزوج وأكوّن أسرتي الخاصة. لكنني فكرت في مصير هؤلاء المغلوب على أمرهم، فارتأيت أن أمنح لهم شبابي وقوتي وحياتي. ولم أهنأ إلا بعد نجاحهم وتفوقهم.

وصمتت المرأة. طغت عليها الذكريات، فشردت ببصرها نحو الأعلى، تناجي أطياف أبنائها الذين لم تلدهم، لكنها منحتهم الحق في الحياة. بينما سرح الرجل ببصره في وجه المرأة الذي غسلته الدموع، ذلك الوجه الذي أثار اشمئزازه، يبدو له الآن في قمة الجمال والبهاء. وفي لحظة، أحس بيد المرأة تضغط على يده وهي تقول:

– اسمع يا بني. إن أجمل شيء في الحياة هو العطاء. كلما فتحت للآخرين أبواب السعادة إلا وشعرت بأنك أسعد الناس.

تدفق الكثير من الحنان من كلامها ومن لمستها، وتمنى لحظتها ألا تتوقف عن الحديث. وتجلت أمامه حياته الموسومة بالاضطراب والحيرة والتخبط. فلم يسبق له أن منح العطايا للآخرين، ولم يحدث له أن تقبل عطايا منهم. عزلته ووحدته تقتلانه، فقد استسلم منذ زمن بعيد لنوازع الشك والريبة لتتحكم في تفكيره وسلوكه. ومنذ زمن، كان يتأمل في الوجوه أمامه، يرتاح لهذا أو ذاك، وينفر من هذا أو ذاك، ويشمئز من آخرين، ويعشق أخريات، ويكره كثيرين، ويتوجس من كثر.

مسلسل من المعاناة لا ينتهي. لكنه اليوم يكتشف سوء تقديراته. هذه المرأة التي –ومنذ قليل– كان يلعن حظه السيء الذي جمعه بها، يتمنى الآن لو طال حديثها، واستمر جلوسها قربه.

أمامه، كان الرجل الأنيق ما زال فاردا قامته، يسيطر بوقاره وهيبته على المحيطين به. عاد الرجل –وبلا شعور– لعادته القديمة، وهو يتفرس في وجه الواقف أمامه، ويجول ببصره في لباسه وهيأته وحركاته. فجأة، انتبه ليد الرجل الأنيق وهي تتسلل لحقيبة سيدة واقفة بجانبه، مأخوذة هي أيضا بسحر الرجل ووقع عطره الأخاذ.

وضع يده في الحقيبة الجلدية السوداء، وبخفة ومهارة، أخرج محفظة السيدة، ووضعها في جيب معطفه. مر المشهد سريعا، وتمت عملية النشل باحترافية كبيرة، تنم عن اعتياد الرجل على الأمر، وعن تمرسه في هذا المجال. فكر أن يصرخ، أن يقفز من مكانه ليمسك بتلابيب الرجل ويفضحه أمام الملأ، أن ينهال عليه باللكمات حتى يشوه وجهه الوسيم، ويلوث لباسه الأنيق بالدماء. لكن ضعفه تغلب عليه، فاكتفى بالقيام بما يجيده، أن يتأمل وجه الرجل.

بدأت الحافلة تتخلص من راكبيها وتلفظهم في المحطات. ينزلون الدرجات القليلة بسرعة ليرتموا في بحر انشغالاتهم اليومية. نهضت الفتاة الفاتنة التي أخذت بلب عقله منذ لحظات، ووقفت بجانب الباب استعدادا للنزول في المحطة القادمة، تجاهلت ابتسامته وهي تحمل هاتفها لتجري اتصالا، وارتفع صوتها وهي تخاطب محدثتها:

– كيف كان لقاؤك بالزبون الجديد؟

علت ضحكاتها وهي تسمع الرد من الجانب الآخر، ورددت بلا مبالاة:

– لقد تعرفت على أحدهم للتو، واتفقنا على لقاء، بعد أن حددت السعر المناسب.

ثم صمتت، وهي تسمع لحديث ذو شجون من محدثتها، وانشغلت بتحسس خصلات شعرها الأسود الحريري، ثم تحدثت بنبرة وقحة:

– لا تقلقي. إن تمادى في تجاهله، فسأبعث لزوجته بما لدي من صور فاضحة. لن يتحمل وقع الفضيحة.

وعادت ضحكاتها لتجلجل المكان، قبل أن تغادر الحافلة. وتخلف في قلب الرجل الجالس صدمة ثانية شديدة الوقع. فتلك الفاتنة التي ألهبت مشاعره، تخفي في أعماقها روحا شيطانية، وذلك الوجه الملائكي الذي زلزل كيانه، يتقن فن الإغواء والإغراء، ويجيد ابتزاز الآخرين، وهدم البيوت.

فجأة، انبعث صراخ مخيف هز أرجاء الحافلة، فاشرأبت الأعناق والأبصار نحو مصدره، حيث امرأة جاحظة العينين، تلطم خدودها، وتصرخ في لوعة:

– لقد سُرقت... لقد سُرقت...سُرِقَتْ محفظة نقودي.

بدا التعاطف والشفقة على وجوه البعض، وتجاهل الآخرون الأمر، فأشاحوا بوجوههم، وعادوا لهمومهم وشواغل أنفسهم. بينما استمرت المرأة في صياحها الملتاع:

– مصاريف العلاج والأدوية التي عانيت من أجل توفيرها، اختفت. ماذا سأفعل؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

تقدم رجل نحو المرأة، وخاطبها بكلمات لم يتبين أحد مضمونها، فصمتت، ونظرت نحو محدثها برجاء. فأخرج رزمة من المال من جيبه وسلمها لها. كادت المرأة تقبل يده ورأسه لولا أن تراجع وهو يشير بيديه ألا داعي لذلك، فرمته المرأة بدعواتها ودموعها، دموع شكر وامتنان.

لم يكن الملاك الذي خلص المرأة من معاناتها، وفتح أمامها أبواب الأمل، سوى الرجل الأسمر ذو النظرات الحادة، والقسمات غير المتناسقة التي تدعو الآخرين للنفور منه. هذا الأخير، أحنى رأسه، وعاد في هدوء إلى مكانه، ترافقه دعوات المرأة المتدفقة من الفؤاد ومن اللسان، ونظرات الرجل الذي تجاوزته الأحداث، وخلخلت كل مسلماته ومعتقداته التي نشأ عليها، وآمن بها.

تبقت محطة واحدة فقط، هي محطته المنشودة. وقف مستعدا للنزول، كما وقف الجميع. أمامه كان الشاب الذي صادفه في مقصورة الانتظار، آنذاك تضايق من جرأته الزائدة وهو يتغزل في الفتاة، والآن يعاين وقاحته وخسته وهو يمرر يديه على جسد فتاة واقفة أمامه. بدا التضايق على وجهها، لكن الزحام الشديد منعها من الهرب، والخوف من الفضيحة منعها من الصراخ. فاستسلمت لنزوات الشاب مرغمة. وانهار الرجل على أقرب مقعد، فقد كانت الطعنة الأخيرة قاتلة.

لفظت الحافلة آخر ركابها، فانظم للحشد المنتشر في أرجاء المكان. توقف أمام واجهة زجاجية لأحد المحلات الراقية والمنتشرة في الشارع الكبير. وتأمل الصورة أمامه:

"وجه متعب، أحاطته لحية خفيفة تناثرت شعيراتها بلا تناسق، وانتشرت هالة سوداء تحت العيون الصغيرة التي فقدت بريقها، بينما تشكلت بعض التجاعيد في الجبين الضيق، وغارت الوجنتان، لتبرز عظام الوجه، وتزداد مسحة الحزن والكآبة فيه."

طال تأمله، وفي لحظة، تساءل في أسى:

– أهو وجهي ينبئ عن بؤسي ومساوئ نفسي؟ أم هو قناع يخفي سعادتي وإنسانيتي؟

ابتسم في مرارة، ثم أحنى رأسه، وأكمل طريقه، وهو يتحاشى النظر في الوجوه أمامه، فلم يعد يملك القدرة على التخبط في بحر الحيرة من جديد.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

فقدان الكينونة (التيه)

إبراهيم السهلي – المغرب

استيقظ إسماعيل على غير عادته، طنين المطرقة يدغدغ الخلايا الجذعية في رأسه، خراطيش الحلم وكوابيسه المزعجة التي تلازمه تبتلع رغبته في الحياة، تيار الهذيان الصاخب في الحلم يعصف به في متاهة تكاد أناه تنسلخ من جسده، صور غابرة وأشخاص مرعبة وجوه أشبه بلوحة فنية سريالية من كثرة التموجات، السديم والعماء يلف الوجوه، الضبابية الحالكة تحجب النظر في نهاية الحلم، كوة صغيرة ينفذ معها إسماعيل نحو الحياة الواقعية ليتخلص من الحلم.

يستيقظ، يرفع عنه الغطاء، يجلس بجانب السرير يشبك أنامل يديه ويضغط بقوة على رأسه ليخفف من طنطنة الصداع الذي لا يحتمل.. يبقى على هذا الحال لدقائق معدودة وهو يحكم قبضته على رأسه عسى أن يرحل الصداع لكن دون جدوى جسده في حاجة لرشفتين من مخدر الكوكايين حتى يعود الهدوء والسكينة وتضع الحرب أوزارها وتسقط قلاع الصداع المشتعل في رأسه، يبحث عن جرعات المخدر وهو بالكاد يقف على قدميه ودوار شديد ألم به حتى يكاد يسقط أرضاً، لكن رغبته في تناول جرعات المخدر تدفعه يقاوم الدوار ويبحث عنها بين رزمة ملابسه الملقاة أرضاً ومحفظة كتبه. يتذكر أنه وضعها تحت سريره، يمد يده نحوها، أصابع يده تلامس الجرعات، قبس من الفرح يغمره وهو يتحسس الجرعة تلو الأخرى، الترياق الذي يخلصه من الصداع الداخلي وملجأه الآمن لحظة هروبه من تناقضات الواقع والحياة.

يقف أمام المرآة ينظر لصورته، يتراجع للوراء مسرعاً والدهشة تعلو ملامحه التي صارت غريبة عنه، يلتفت في زوايا الغرفة يبحث عن صاحب الوجه، يتوجس خيفةً أن يكون رفقته هذا الغريب يستوطن غرفته دون علم بذلك، يجلس على أريكته ينظر لجرعات المخدر وهو يحكم قبضته عليها، تعود صورة الغريب تنتصب أمام عينيه، يقف على قدميه يخطو خطوتين وئيدا كأنه يحمل الجندل، يتقدم نحو المرآة بحذر، يسترق النظر من بعد ليرقب ظل الغريب لكن بلا جدوى، يتقدم خطوة أخرى ليقف منتصبا أمام المرآة يطالع وجه الغريب: وجه شاحب، ملامح غريبة بالكاد يتحسس قسماتها، عينان جاحظتان، جفون تئن من الوجع، فروة رأسه رثة تتدلى على جبينه، شعر لحيته كث وكأنه ركام من القش، تجاعيد كالحفر تملأ وجهه، وجه غريب يثير الرعب، ينسحب بسرعة أفزعه المشهد وسال طنين الصداع يتدفق داخل جمجمة رأسه، وهو يردد: "من يكون هذا الغريب؟ هل أعرفه؟ هل هو صديقي؟ ربما فقدت ذاكرتي؟ لا اسمي هو اسماعيل؛ أبي أحمد وأمي فاطمة؛ أدرس بقسم الثانية بكالوريا علوم فيزيائية، أذكر أستاذ الرياضيات وهو ينفعل بشدة حين لا أستوعب ما يقوله ويلقي بأوراقه أرضاً ويغادر القاعة يلعن الرياضيين الإغريق. مدرس الفلسفة وهو يلقي علينا دروسه الميتاواقعية، جلباب مدرس التربية الدينية الأبيض وقبعته الحمراء، زي يحضر به كل جمعة للمدرسة يلقي علينا مواعظه التي تثير فينا الخوف، أستاذ الفيزياء وهيأته النيوتونية كأنه كائن تجاوزه الزمن، ضفادع مدرس علوم الحياة وسرب من الصخور يحملها في جيوب معطفه الأبيض، مدير المدرسة وربطة عنقه العجيبة وهو يقف كل مساء كعسكري يتابع

حركة الطلاب، حارس المدرسة الشيخ يحيى وقد بلغ من العمر عتيا، جارنا البقال.... لا لم أفقد ذاكرتي أنا هو هو".

يقف يمشي وهو ينظر لخطواته ينتعل خفيه ويخطو خطوتين للأمام ثم يزيلهما ويمشي حافي القدمين في أرجاء الغرفة، يكتشف لأول مرة المشي حافي القدمين رغم أنه أمر مألوف لديه ولم يلاحظه من قبل، يقف ينظر لحاله يستطلع هيئته العجيبة، يبتسم وقد اكتشف ذاته وكأنه هو، يردد: إنه أنا بلا شك. لكن ما الأنا؟ يزيل الستار يطل من النافذة لعله يرقب شبحه، تتشابه الأقنعة على الوجوه، القبعات فوق الرؤوس كلها تسير في اتجاه واحد غريب أمر هؤلاء. يطلق الستائر ويعود يجلس على الأريكة، منسوب الطنين يرتفع والصداع يشتد، يخرج المخدر ويتناول الجرعة الأولى، يستلقي على الأريكة تستنشق عبير الهواء وهو يحاول أن يتحسس حبات الأكسجين في خياشيمه، لكن المخدر كان قويا. كانت الجرعة منبه لخلايا الجسم، هو في حاجة للسم الأبيض، علت حدة الصداع أضحت تثير قلقه، تناول تباعاً خمس جرعات وغفى قليلا جراء تأثير قوة الكوكايين. اختفى الصداع نهائياً، الكوكايين ترياق فعّال يخمد نار الصداع المتقدة.

صحى من غفوته على وقع أيادي تسحبه من فوق السرير، بالكاد يفتح عينيه الجاحظتين، يستطلع فضاء الغرفة وقد أضحى يعج بالأشخاص، الهلوسات عاودته من تأثير المخدر، امتدت يده لقنينة الماء ليروي عطشه، أخذ كرسياً وجلس أمام المرآة، وجها لوجه أمام هذا الغريب الذي يسكن غرفته ووراء الوجه تصطف كل الوجوه التي يبدو بعضها مألوفاً والآخر غريباً. انتصب وجها لوجه

أمام الغريب، يهيم أن يحدثه ويتراجع. ينظر نحوه لكن يعتريه الخجل، فيكف عن السؤال. في داخله آلاف الأسئلة لم يعرف من أين مأتاها ومذهبها:

ترى من يكون هذا الغريب؟ إنه يرتدي نفس ملابسي!! الوجوه التي تقف وراءه تنظر نحوي، تخزرني بنظراتها الشاحبة. زملائي في الفصل الدراسي، رفاقي في الحي، بائع الكوكايين، أبي واخوتي الصغار، ابتسامة أمي، نصائح أستاذتي، وجوههم تطاردني من وراء هذا الغريب الذي لا يريد أن يتحدث، أسأله ولا يجيب، يكتفي فقط بنظرات شاحبة تمقتني كأنني حشرة مقيتة مقززة المنظر، تسحلني نظراته وترمي بي في عالم غريب لا أعرف من أكون. ابتسم ويبادلني نفس الابتسامة؛ أحدثه ولا يبادلني نفس الحديث، غريب أنا وهو في نفس الآن غريب، صرنا غرباء داخل الغرفة، حاولت أن أتخلص منه لكن يرفض يده تمتد من وراء المرآة تحكم قبضتها على سوار يدي، يحاول أن يسحبني نحو عالمه المخيف؛ أقاوم بشدة أنائي أتشبت بعالمي الذي أعيشه رغم هول الغرابة التي أعشيها وهوس فقدان الذات؛ ذاتي التي صرت لا أعرفها؛ الوجوه التي يتبعني حفيف ظلها تتدافع تملأ غرفتي...

صوت ينبعث من خارج الغرفة ينادي:

– اسماعيل هل أنت مستيقظ؟

كان صوت أمه يكسر جدار العزلة وينسل أثيره عبر مسام الجسد يخلص جسم إسماعيل من أفيون المخدر، ينتشله من عالم يسحل ذاته في متاهات الغياب وجداول التيه، يفتح باب الغرفة برفق تدخل الأمل تمتد يدها الحنونة نحو جسد ابنها النحيف، يرتمي إسماعيل في حضن أمه هاربا

من جحيم الأقنعة التي تتبعه والأيادي التي تتعقبه، من الغريب الذي يسكن غرفته ويستوطن كينونته؛ حضنته أمه بقوة وحملته بين دراعيها وغادرت الغرفة.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

يوم الصَّلاة

أسامة بوعناني – المغرب

كان صباحاً ربيعياً منعشاً، خرجت باكراً بفرح رفقة عمي ووالدتي مرتديا "جابادورا" أبيضاً ناصعاً و"طربوشاً" مخزنياً أحمراً، كنتُ فرحاً للغاية؛ فقد أخبرني عمي بأننا سنذهب لنصلي في أحد المساجد... وصلنا إلى وجهتنا، بناية كبيرة وشاسعة تبدو كمكعب ضخم صبغ بالأزرق والأبيض، كان شكله غريباً، فكل المساجد التي رأيتها في الصور أو التلفاز أو مررت بجانبها وأنا برفقة والديَّ ترتفع منها بنايات طويلة، أخبرني والدي يوماً أنها تسمى صومعات؛ لها أبواب مقوسة ومزينة بزخرفات بديعة، لكن هذه البناية مختلفة لم تكن هناك صومعات ولا أي زخرفات، تعجبت في بادئ الأمر إلا أنني سرعان ما تناسيت ذلك حين أخبرني عمي بأنه مسجد من نوع آخر.

ظللت ألعب وأركض في حديقة داخل هذه البناية حافي القدمين، فالركض بـ"البلغة" الصفراء صعب وقد أقع وتتسخ ثيابي التقليدية التي انتظرت هذا اليوم ببالغ الصبر لارتدائها، سمعت عمي يطلب من أمي أن تنتظر قليلاً حتى يبحث عن "الحجّام" ويسجلني في اللائحة، سألت أمي عن هذا "الحجام" ومن يكون ولماذا يبحث عنه عمي وأي لائحة تلك؟! كنت رغم صغر سني فضولياً وملحاحاً وإن سمعت شيئاً غير مألوف لن أرضى أن يمر هكذا دون تفسير.

أخبرتني أمي أن الحجّام هو صديق الإمام وهو من سيأخذني إليه لكي نصلي ولكن عليَّ أن أكف عن الركض واللعب حتى يسجّلني أولا في لائحة الأطفال الذين سيقابلون الإمام، قاومت رغبتي في اللهو وجلست بأدب قرب أمي على أحد المقاعد الخشبية، فرغبتي في تلك "الصلاة" كانت

قوية وهزمت شقاوتي وحبي للعب والركض، لم يطلْ غيب عمي دقائق حتى عاد إلينا يحمل ورقة كتب عليها عدة أرقام، أخبرنا بأن الحجّام غير متوفر الآن ولكنه أخذ رقم هاتفه وحدد معه موعداً ليحضر إلى منزل جدي بالغد، سألت عمي عن موعد الصلاة فأخبرني بأنه يتوجب علينا تأجيلها إلى الغد فالإمام مشغول الآن، وسيأتي الحجّام لزيارتنا غداً في المنزل من أجل صلاة خاصة، هذا إن ظللت مؤدباً وامتنعت عن شقاوتي المعهودة.

خاب ظني في بادئ الأمر فقد انتظرت طويلاً حضور الإمام، لكن نبأ الزيارة الخاصة كان أقوى من هذه الخيبة وأعادني إلى سرور الصباح وأكثر.

مرت تلك الليلة طويلة وتعذّر عليَّ النوم من شدة تحمسي للزيارة الخاصة، وفي صباح اليوم التالي استيقظت متأخراً قليلاً على غير عادتي وعلامات الإعياء بادية عليَّ لكنها لم تمنعني من الركض بحثاً عن أمي وسؤالها عن موعد حضور الحجّام، أمرتني بتناول فطوري أولاً ثم أنتظر في الصالة بهدوء حتى يأتي الحجّام، شغّلت أمي التلفاز وضبطته على القناة الثانية فقد حان موعد الرسوم المتحركة المفضلة لدي.

كان منزل جدي يدبُّ بحركة غير عادية، أمي وعماتي يلبسن لباساً تقليدياً لم أعتد رؤيته إلا في الأعياد، وجدتي ما تفتؤ كل قليل تأتي لتضمني في فرح وتقبلني في رأسي مكررة تلك الجملة التي تختمها بزغرودة مدوية: "سعدي بولد ولدي كبر وهادا نهارو"، لم أفهم شيئاً من كلام جدتي ولم أعره اهتماماً فانتباهي كله مشدود للرسوم المتحركة المعروضة على شاشة التلفاز، وكم

تنقطع حواسي الخمس عندما تعرض هذه الرسوم، فعلى قدر شقاوتي وحركتي الدائمة والمزعجة أحياناً، تنقلب فجأة سكوناً تتعجب له أمي كأنني مسحور بتلك الشاشة ورسومها فلا أبارح مكاني إلا حين انتهائها، وكم سبَّب لي ذلك السكون من عقاب حين تعرض البرامج بالتزامن مع إحدى الوجبات فأرفض تناولها إلى أن تنتهي، الشيء الذي ترفضه أمي بشدة، فحين يتعلق الأمر بالأكل؛ فلها نظام صارم الويل لمن يتجرأ على خرقه، حين تهيئ السفرة على الكل أن يلتف حولها دون تأجيل أو تغيير لموضعه.

وبعد برهة سمعت دوي زغرودات من عماتي وجدتي معلنين قدوم عمي رفقة الحجام، سارعت أمي لإلباسي "الجبدور" الأبيض وأمرتني أن أنزع سروالي الداخلي وأتوجه لبهو المنزل، لم أستفسرها عن هذا الطلب العجيب رغم ما مر في رأسي من تساؤلات عديدة، فقد أنستني مداعبة النسيم العبار من نافذة الغرفة لأسفل بطني، وذلك الإحساس المنعش الذي أستشعره كلما ذهبت رفقة أبي للحمام "البلدي"، لم يخرجني من نشوتي سوى ذلك الشيء الغريب الذي لاحظته أثناء خروجي من الصالة، شيء مريب أثار انتباهي، وقد كنت لاحقاً على حق في ذلك الارتياب، كان أحد الكراسي البلاستيكية الكبيرة في موضع غير محله في وسط الصالون\ الكبير، الشيء الذي غالباً ما ترفضه جدتي وتنهر الجميع عنه، وأكثر ما أثار استغرابي أن طلب مني عمي الذهاب والجلوس على ذلك الكرسي، الصالون، تلك الغرف التي تكاد تكون مقدسة في منزل جدتي ويحرم علينا اللعب بجوارها فكيف بي أجلس فوق الكرسي البلاستيكي وبمنتصف "الصالون"، تناسيت كل هذه الأمور فبالي كان منشغلاً بأمور أخرى زادت من حدة ارتيابي، كتلك الحقيبة الكبيرة التي يحملها الحجّام

والتي أخرج منها آلات حديدية لم يتبين لي منها سوى مقص حديدي كبير ذو رأس حادة، ذلك المقص الملعون، كنت أتسائل عن الغرض منه ومن تلك الآلات العديدة، أليست هذه زيارة خاصة للصلاة؟ علمت لاحقاً دوره في هذه الزيارة ويا ليتني لم أعلم، لم أستوعب ما حدث فقد كان مفاجئاً وسريعاً، اقترب مني عمي في غفلة وقيدني من الخلف بذراعيه حيث جعل قدماي مفتوحتان رافعاً "جبدوري" الأبيض وكاشفاً لأشياء لا يجب عليه كشفها خصوصاً أمام عماتي وجدتي، بل وأمام هذا الحجّام الغريب!

اقترب مني هذا الأخير حاملاً ذلك المقص وهو يسكب عليه قطرات من سائل أحمر كأنه دم فاتر، كان موضوعاً في قنينة زرقاء أخرجها أيضاً من تلك الحقيبة الملعونة، ابتسم إلى بملامح غريبة لن أنساها أبداً كأنه يتشفى فهو يعلم ما سيحدث بعد ثوانٍ، تحولت دهشتي وارتيابي لخوف شديد ظهرت علاماته بادية عليَّ، اختلطت عليَّ الأمور بين الخوف والخجل، فلم أعلم أعليَّ الصراخ خوفاً من ذلك المقص أو البكاء خجلاً من كشف "سري" على الملأ، انتهى الحجّام من سكب ذلك السائل ومسح المقص بقطن أبيض سلمته عمتي له، علمت لاحقاً أن تلك العملية تسمى تعقيماً وأن ذلك السائل يقضي على الجراثيم والميكروبات التي يمكن أن تعلق بالأدوات الحديدية، صاح بي الحجَّام وهو يقرِّب المقص من الضحية: "شوف أ عمو طوير"، "شوف لفوق طوير".

لم أستوعب كلامه من شدة خوفي، فكان أن أعاده رفقة عمي: "شوف أسامة لفوق واحد البرطال طاير في السقف"، رفعت رأسي مندهشاً كيف للبرطال وأنّى يتواجد في صالون المنزل ولماذا عليَّ أن أشاهد هذا العصفور؟! وفجأة، صوت طقطقة المقص أعقبه ألم لم أحس بشدة مثله قبلاً ولا

بعداً، صرخت بأعلى صوت حتى كاد نفسي ينقطع، زاد عمي من إحكام قبضته عليَّ، وتوالت زغاريد عماتي وجدتي، أخذت أبكي بشدة وأبحث عن وجه أمي، وإذ هي تظهر أمامي وعيناها تدمعان، كانت مختبئة في الصالة المجاورة فلم تقوَ على مشاهدة المجزرة، ما إن وقعت عينيَّ عليها حتى أخذت أصرخ وأطلب قدومها: "ديني نتفرج في الرسوم راه قربو يتسالاو"، لا أدري لم طلبت ذلك، كل ما كنت أفكر فيه هو أن أعود للصالة لأكمل مشاهدة التلفاز، كأن عقلي رفض أن يتذكر ما حدث للتو وكل ما يريده أن أعود للصالة كأن شيئاً لم يكن.

قدمت أمي لتحملني بعد أن انتهى الحجّام من تعذيبي كأني أسير يرفض الاعتراف بتهمه، حملتني أمي برفق فما زلت أتألم كلما لامس "الجبدور" عصفوري الجريح، استمرت جدتي وعماتي بالزغاريد وترديد أغانٍ لم أستوعب كلماتها من وقع الألم والصدمة، وضعتني أمي بحذر في زاوية الغرفة المقابلة لشاشة التلفاز، ثم شاهدت جدي أول مرة ذلك اليوم، قبَّل رأسي وأعطاني مصحفاً صغيراً وبعد النقود والحلويات وضعتها جميعاً أسفل وسادتي البيضاء، ثم توالت عليَّ التهاني والهدايا، لم أفهم سبب ذلك، فأنا في ألم لا يعلمه أحد، ألم دفعني لكره الحجّام والمقص وعمي بل وحتى تلك الصلاة الخاصة التي جعلتني أعاني كل هذا.

ظل الناس يتوافدون لتهنئتي وتقديم الهدايا لي، لم أدرِ سبب فرحهم فأنا أتألم ولم أظن يوماً أن الألم قد يكون مصدر سعادة لأحد، كان كل همي أن يبتعد الجميع من أمامي حتى أتابع رسومي المتحركة، وعقلي ما زال يرفض التفكير فيما حصل أو الغاية من ورائه، إلى أن قدم عمي

مهنئاً وتعلو وجهه ابتسامة أحسست كأنها تقول: "درتها بك أولد خويا"، قبلني على رأسي ومد

لي بعض النقود ثم خاطبني: "أسامة مبروك الختانة".

للقراءة أونلاين

اضغط هنا

الكتيب النقدي

اضغط هنا

لتصفح الكتيب النقدي

كملها

مع حكياتنا

نشاط جديد يضاف إلى فعاليات **مبادرة حكياتنا للقصة القصيرة**، يتيح الفرصة للمبدعين العرب بأن تكون لهم بصمة متميزة في المجموعة القصصية الإلكترونية التي تصدر عن المبادرة عبر دمج أغلب شخصيات القصص العشرون الأوائل في قصة قصيرة واحدة ضمن حدث فريد وحبكة معقدة

القابع خلف الأحلام

عمر عبد الفتاح مراد – مصر

- حسن... حسن !

صدى الصوت يعبر أذنيه، الظلام حالك وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، لا شيء أبداً سوى الظلام، يتحرك بخطوات متوجسة، البرد يخترق جلده ويستقر في عظامه، الوعي بين الموجود والا موجود... يحاول الفهم، يحاول أن يُنصت للصدى الذي ظل ينادي تباعاً: "حسن حسن" وفحيح الصدى يجثم على قلبه، تتسارع موجاته لتصدم وعيه وتزيد من اضطرابه، خفقان متزايد وأنفاس تسحب روحه إلى الأسفل، الأرض باردة كأنها جليد متماسك، يتحسس جسده في حيرة؛ لا ثياب عليه! إنه عارٍ تماماً.

مضت دقائق بين الصمت والصدى والظلام لا يعطي الحق لمن ابتلعهم بالفهم ورؤية التفاصيل، راح يخطو أخيراً إلى الأمام كطفل يتعلم السير ليرتطم على حين غرَّةٍ بشيء ما، شيء كجدار أو باب، قال فزعاً ولأول مرة يسمع صوته الذي ارتد إليه:

- من ؟ من هنا ؟

صوت كالصدى يجيب عليه:

- أخيراً يا حسن...

- من ؟ من أنت؟

اهتزت أطرافه ورجع للخلف قليلاً:

- أنا يأسك يا حسن!

كان يلتفت يميناً ويساراً كالمجنون، وكأنه سيرى شيئاً ما، "هذا حلم أجل لابد أنه شيء غير حقيقي" قال في نفسه، ثم قرص جلده الصقيع أكثر، والظلام الذي بات جزءاً من عينيه الواسعتين، حاول ان يتماسك وسأل محدثه الغامض:

- ماذا تريد؟ أين أنا... ماذا تريد مني ؟

علا صوته... بدأت أعصابه تتفلت وازداد شهيقه وزفيره كأنه يركض، كوّر كلتا يديه من فرط البرودة، أطرافه ترتعش بل كل مساحة جسده تهتز في ذبذبات متزنة ولو رأينا جسده عن كثب لشاهدنا شعيرات كامل جسده منتصبة وبصيلات جلده منتفخة، صوت طقطقة أسنانه بدى مزعجاً خانقاً، لكنه لا يتحكم في ذلك، عاد الصوت مجدداً ولكن الصوت هذه المرة كان مباشراً لا صدى كذي قبل كما لو أنه خلف أذنيه تماماً، كأنه يخرج من رأسه ثم يعود عبر أذنيه:

- لن تبلغ مرادك يا حسن، الأمر أكبر من مقدرتك، أنا وأنت نعلم أنك جاهل بطبيعة الحال.

لم يفهم حسن قصد محدثه وظل مرتاباً في كل شيء، وقبل أن يسأل عن مقصود ما يُقال، هبت هبات فجائية شديدة الدفء فأرخت أعصابه وليّنت جلده المتيبس وأجرت دماءه بحريَّة أكثر في أوردته وشراييته، لقد شعر أخيراً بشيء من الحياة يسري في جسده، ابتسم ابتسامة ارتياح عفوية ثم ما إن هم ليتكلم إذ بالآخر يستطرد قائلاً:

- لازلت لم تبلغ سوى خمسة قصص أليس كذلك ؟ هذا يعني خمسة مشتركين، لا يوجد أمل البتة في أن تكمل المائة قصة، وأنت بالكاد قد جمعت خمسة قصص في ثلاثين يوماً، هذا

ناهيك عن جهلك وقلة خبرتك في هذا المجال، لن تتمكن من الوفاء بالوعد الذي قطعته لوالدك يا حسن، فلتنسى الأمر.

توقف الصوت وانقطعت الكلمات، لكن نهراً جارفاً من الذكريات غزى عقله، فهبطت أمامه الأحداث أو هبط هو داخلها، المهم أنه خرج من هناك إليها وصار يرى ما جرى وكأنه يجري الآن ويحدث في التو واللحظة؛ والده يجلس إلى المكتب منغمساً في كتابة شيء ما، ثم مستلقياً على السرير مرهقاً متعرقاً ويلتف حوله بعض الرجال والنساء وشاب يافع يجلس عند رأسه يبكي بكاءً صامتاً، الآن يتذكر ويعي جيداً ما يقصده الصوت الغامض، المشهد يجري تلو الآخر، يجلس أخيراً إلى جوار والده الذابل كزهرة في منتصف الخريف، يستمع الى حوارهما آنذاك:

– كنت أتمنى لو أنني أكملت معك المبادرة...

سعلات خشنة تعيقه عن التحدث بحرية، ثم أردف بعد عناء:

– أعرف أنني بدأت متأخراً على كل حال، لكنني تمنيت أن أحدث فارقاً واحداً، أثراً بسيطاً لعلي أنفع به، لمَّا يحالفني الحظ كروائي ولم ألقَ الشهرة أبداً...

سعل من جديد ثم أكمل وبعض العبرات تسقط على جبهته من عيني حسن:

– لا تبكِ، ستكمل أنت وخذ مني نصيحة يا ولدي لا تترك عمرك يمضي ولا تؤجل شيئاً للغد... أكمل ما بدأناه كأنني لازلت معك...

صمت حابساً سعلة خفيفة ثم عاد ليقول:

– هل تعرف ماذا أسميت المبادرة (حكياتنا).

هز حسن رأسه وهو يمسح عن عينيه غشاوة الدموع، تابع الآخر يقول مقاوماً عناء الأنفاس المتهدجة:

– إنها دمج بين الحكاية والحياة ، فيا بني للحكاية حياة وللحياة حكاية !

ابتسم ابتسامة حزينة ونظر إلى أبيه نظرة إعجاب ممزوجة بالحزن، ثوانٍ ويلاحظ عيناه تتسعان، صدره يعلو ويهبط بصعوبة بالغة... صوت حشرجة خانق... يسرع الجميع إلى الداخل على صرخات حسن الجزعة: "أبي ... أبي ساعدوني!"

تقطع المشهد مجدداً، يعود غارقاً في الظلام ينظر حوله محدقاً مذعوراً ، ولا زال سيل ذكرياته الهادر يعبر من أمامه؛ يرى نفسه جالساً إلى جهاز الحاسوب، تتحرك أصابعه فوق لوحة المفاتيح بسرعة،تذكر كل شيء، "لماذا لم أكن أذكر كل هذا؟" يسأل نفسه ، يعرف الآن أن لديه خصم يتوق إلى منعه من إكمال ما بدأه، يستغل نقاط ضعفه في مجال الأدب، فهم كل شيء، لكن لماذا هذا الظلام وكيف صار اليأس يتحدث بهذا الوضوح.

مرة أخرى الظلام ، البرد ، ثم يعود الصوت من جديد ولكن بنبرة عالية:

– ما النفع من كل هذا ؟ ها ما الفائدة من هذه المبادرة ، قصص بائسة بأبطالها الخياليين أحياناً أو الواقعيين أحيانا كثيرة، ألسنا نرى أمثالهم يومياً؟ ألا يكفي ما تفعله الحياة بالناس، إنني أتغذى يومياً على الكثيرين منهم، أحلام وطموحات تُلقى إليَّ بلا أي مجهود يذكر...

تأتي هبات دافئة من جديد، يستشعر بعض الحرارة ، جعلته الذكريات الآن أكثر قوّة ، لقد وجد الحافز وجد السبب ليقاوم، وجد السبب ليتقدم ، صورة أبيه أمامه وعلامة المبادرة التي صممها بنفسه بلونها البرتقالي، (حكياتنا)، يسير متجهاً إلى مصدر الصوت الذي صار واضحاً تماماً.

– لماذا لا تمعن النظر، متدبراً مثلاً في شخصية ذلك المدعو عمران في قصة (أيطير طائر بلا أجنحة) لقد تحداني وحاولتُ جاهداً أن أثنيهِ عن أمله في شفاء ابنته ثم ماذا حدث؟ قتلَتهُ في النهاية...

قالها ساخراً ثم أردفَ:

– ألا ترى ؟ هناك أشياء حتمية يا حسن لا نفع من مقاومة حدوثها ، كذلك انظُر إلى الذي ينتظر مالا يجيء ، ما اسمه؟ آه عبد المهيمن يا له من شخصية ساخرة لا نفع منها إنه يوهم نفسه ويصدق هذا الوهم ، يجلسُ في المحطة المغلقة التي لا تعبر بها أية حافلات ثم ينتظر أن يحصّل حديثاً مع أحدهم! انهُ ينتظر ماذا ينتظر؟ أينتظر ابنه؟ أينتظر الذي بدد أحلامه؟ أم ماذا ينتظر؟ إنها قصص تثيرُ الحزن لا أكثر ولا شيء يفيد منها كما هو الحال مع القصص الأخرى.

صمت لحظة، توقفَ حسنْ مترقباً للحظة شعرَ أنها دهراً، ثم أردف الصوت بعد أن ضحك ضحكة مقززة كالشيطان، جعلت حسن يشعر بالغثيان:

– صحيح اقرأ قصة تلك المدعوة لين التي تخاطب شبح أمها... هاهاهاهاخاهاها .

تماسكْ وراح يتقدم من جديد، لم يتوقف بعدْ ذلك وأخذَ الصوت يسرد تفاصيل القصص ، الهبات الدافئة تأتي بكثرة ، ضحكات المتحدث الغامض أو اليأس كما يدعو نفسه تتعالى، صورة أبيهِ

يبتسم له لا تفارق خياله ، الظلام ينقشع شيئاً فشيئاً، ضوء يتسرب إليه من كل مكان وكأن ثقوباً عدة بدأت تحدث في صفحة الظلام الحالكة، الصوت يعلو ويعلو يردد:

– لن تستطيع يا حسن لن تستطيع ، أنت جاهل! أنت جاهل! لا تملكُ أي شيءٍ من أمركْ .

الصوت يخفت الآن شيئاً فشيئاً، لاحظ حسن ذلك، فجأة انقطع الوعي كانقطاع للبث، يفصل تماماً لا شيء يراه لا شيء يسمعه، لا إدراك... صوت صَدَرَ من سماعة الحاسوب، لينتفض فزعاً من فوق المكتب ، ذراعاه مخدران لا يشعر بهما تقريباً، رقبته تؤلمه، يفتح عينيه بصعوبة، يحاول أن يصدق أنه خرج من تلك البقعةِ السوداء، في الشاشة أمامه رسالة وصلت نافذتها مفتوحة، وخلفها كانت الصفحة الخاصة بالمبادرة، قرأ المنشور الظاهر أمامه والذي نشر قبل ساعتين وأخذ يقرأ بنصف عينيه:

"باقي على نهاية المبادرة خمسة عشرة مشتركاً، مع تحيات مبادرة (حكياتنا)"

ابتسم في ارتياح ، وراح يخبط كفاً على كف من ذلك الكابوس المزعج، تذكر في البداية كيف كان الأمر صعباً للغاية، شعر بالفخر والسرور، نظر إلى البرواز المعلق على الجدار خلف الحاسوب ، وقال مخاطباً أباه في الصورة: "لقد فعلناها يا أبي"، رن جرس الهاتف ليقطع فيض تأملاته، صدر صوت ذكوري بنبرة مبتهجة:

– راجعت آخر قصتين اليوم، ألن نخرج؟

صمت حسن لحظة ثم قال متحمساً :

– حق مراجعي اللغوي أن يحصل على نزهة.

- حسناً ألقاك في المساء.

في مقهى الحرية المطل على نهر النيل مباشرة، كان حسن يجلس مستمعاً في إنصات إلى صديقه سالم بعناية شديدة وهو يتحدث حول المبادرة قائلاً:

- المبادرة الآن في أوج ازدهارها لابد أن نستأجر قاعة كبيرة ونقيم حفلاً لتوزيع جوائز تقديرية للفائزين.

وراح يشرح الخطوات بالتفصيل، وحسن ينصت وابتسامة تعلو محياه. ثم بعد ذلك أخذَ حسنْ يسرد تفاصيل ذلك الكابوس المروع وسالم يتسمعُ باندهاشٍ كبير.

قبلّ النوم تتوافد الأفكارُ والمخاوف وأحياناً تشتعلُ الحماسة، وسط الغرفة تماماً كان مستلقياً على السرير بعينينِ ساهرتين يفكرُ في اقتراح سالم، هل هذا ممكن؟ سأل نفسهُ وهو ينقلبُ على جانبهِ الأيسر واضعاً كفه أسفلَ خدهِ، ثم استغرق يفكرُ في العقبات التي تواجهه مثلَ المال المطلوب وهل سيكونَ المردودُ كافياً لتغطية التكاليف؟ هل سيقبلُ المشتركون دفع اشتراكٍ رمزي؟ وهكذا مضت نصف ساعة وهو يقلبُ الأفكار في رأسهِ تارة وتارة يتحدثُ بصوت مسموع كأن هناك من يهتم مستمعاً إليهِ.

غطَ بالنهاية في نومٍ لم يقدمْ إنذاره َليذهبْ حيثُ ستتكالبُ عليهِ المصائبْ من جديدٍ:

- حسن... حسن...؟

متأوهاً ينهضُ عنْ الأرض محاولاً أنْ يجمع شتاتَ نفسهِ، سأل نفسهُ وهو ينظرُ بعينٍ حائرة إلى أشجار التنوب الباسقة والكثيفة: "أينَ أنا؟" ارتدَ إليهِ صوتهُ: "يا ويلي هل ذهبت إلى ذلك العالم مجدداً؟" قالَ هامساً وهو يرسمُ إماراتِ انزعاجٍ على ملامحهِ السمراءْ، هذهِ المرة يرتدي ثيابهُ، بيجامة النوم الزرقاء التي ارتداها الليلة، إنهُ واعٍ تماماً لكل شيء، لن يخدعهُ ذلك الصوت هذهِ المرة أو هكذا اعتقد، عند هذهِ النقطة وقبل أنْ يستدير لينظر خلفهُ كانَ مجموعة من الناسِ؛ شبابٌ وشاباتٌ سيداتٌ ورجال في الخمسينات يقلُون أو يزيدون ْ قادمونَ فوجاً متجهينَ إليهِ تماماً سائرينَ فوق البحر الذي تفاجأ أنهُ موجودٌ حينَ استدارَ، وهذهِ الأرض التي يقفُ عليها تشبهُ جزيرة رغمَ أنها تبدو غابةً إلى حدٍ كبير، أذهلهُ كيفَ يسيرون على الماءْ لكنهُ تذكرَ سريعاً أن هذا ما هو إلا حلمٌ عابرٌ، أثار المشهد فضولهُ ما الذي سيكونُ عليهِ الأمر هذهِ المرة، من هؤلاء ؟

بعدَ انتظارٍ لم يعرفْ كمْ دامَ، وصل الفوجُ إليهِ اخيراً، ظلّوا ثابتينَ لبرهة أمامهُ تماماً وهو يقلبُ عينيهِ في وجوههم، من همّ هؤلاء يسأل نفسه مجدداً ثم أخرجَ السؤالَ هذهِ المرة اليهم بنبرةٍ من ضاقَ صدرهُ :

- من أنتمْ؟

ابتسمَ الجميع ابتسامةً ثابتةبثت الرعبَ في صدرهِ، كرر السؤال... لم يجبهُ أحد، الابتسامة ذاتها ثابتة! بدأوا يتقدمونَ نحوّه، وأخذَ يتقهقرُ في خوفٍ وارتيابْ، هبّت رياحٌ باردة عنيفة، أسقطتهُ أرضاً، الابتسامة ثابتة، مستلقياً على الأرض أطلّوا عليهِ بعيونهم وابتساماتهم المخيفة، أخذَ يجرُ جسدهُ إلى الوراء ووجوههم تقتربُ هابطة إليهِ، ثم دوّت صرخة غاضبة جعلتهم يرجعونَ عنما يفعلون،

انتصبوا جميعاً وزالت الابتسامة وبسرعة قاموا بتشكيل دائرة حوله... لم يدرِ حسن ما الذي يجري! ما هي إلا لحظاتٌ حتى خرجَ من خلفَ الأشجار ثورٌ أسودٌ يقفُ على ساقين كالإنسانِ تماماً، تقدمَ إلى الأمامَ فأفسحَ الواقفون مجالاً له صانعينَ ممراً صغيراً، كانَ هذا المخلوق طويلاً لهُ قرنانِ بارزانِ، شعرهُ الأسود يملؤ كامل جسده بغزارة شديدة،لاحظَ حسنْ الأنظار متجهةً صوبَ شيءٍ ما، والطيور التي حلقت خائفة من فوقِ الأشجار مصدرة صوت صفيقٍ أجنحتها المضطربة، استدارَ في حذر حتى أذهلهُ الواقفُ أمامهُ ولم يتعرف ماهيتهُ في البداية... طويل جداً وعريضٌ كجدار بيتْ، مصوباً نحوهُ نظراتٍ تقدحُ شرراً، تشنجت عضلاتهُ هلعاً وفتحَ فاههُ من الذعر كأنما يريدُ طلب النجدة أو كأنهُ لم يعد يتحكم في أعصابِ وجهه،ثبتت الصورة عند تلك اللحظة،الآن فقط لا يهمُ إذا كان هذا حلماً أو لا، يشعرُ بالخوفِ بل بالذعر الذي يكادُ أن يوقفَ قلبهُ،الواقفونَ ينظرونَ نظرة تبجيلٍ إلى المخلوقِ الضخم الذي بدا أنهمْ يعرفونهُ جيداً.

- انظر حولك ؟

قال المخلوق موجها لحسنْ امراً لا رجعة فيهِ، فنظر فلا شيء سوى الواقفينَ حولهُ وقد عادوا لينظروا إليهِ مجدداً.

- ها همْ ضحاياي الخيالينَ أمامكَ الآن، أبطالُ القصص التي ستفوزُ عما قريبْ.

ثمَ أشارَ بمؤشرتهِ التي تشبهُ البشر إلى أحدِ الواقفين:

- أنت ما اسمك ؟

انحنى الشاب في خنوع وقال:

- داوود يا سيدي.

- وأنتِ ما اسمكِ؟

أجابت في خنوع:

- سمية يا سيدي.

- وأنتِ؟

- سولي يا سيدي...

استمر يسألهم واحداً تلو الآخر حتى وصلَ إلى آخرِهم وهذا ما أدهش حسنْ الذي لم يلاحظّ ذلك الرضيع الصغير بينهم:

- وأنت ما اسمك؟

فنطق الطفل بسلاسة شخصٍ بالغ وهو يقف وقفة تامّة:

- أسامةَ.

كانَ الطفلُ عارياً، وزادت حدة الصدمة لدى حسن فدفعته للنهوضِ سريعاً والركضِ بلا هدف لكنهُ تفاجأ باثنينِ من الواقفين يمسكونهُ من ذراعيهِ ويطرحونهُ ارضاً.

ضحك المخلوق ضحكتهُ تلك التي يذكرها حسن جيداً ثم أردف يقول وهو يبرز نابينِ طويلينِ عن بقيةِ أسنانهِ السوداء:

- كل هؤلاء ضحايايّ يا حسن، حتى هذا الطفل الجريح، إنهُ الآنْ في قمة الألمِ والكراهية، انظرْ إلى عينيهِ الصغيرتينِ والشرُ الذي يخرجُ منهما، بل إنك لو سألتهُ عن حالهِ لقال أنهُ تمنى أن

يموتَ بمجردِ أن ولد، اليأسُ في كل مكانٍ يا حسنْ، ستكونُ أنت ضحيتي الواحدة والعشرينَ في هذهِ المبادرة التي ستموتُ قريباً عاجلاً أو آجلاً لن تهزمني جهودك ولن تتمكن من المضي قدماً...

قال ذلكَ وهو يضغط بفكيهِ على بعضهما، شعرَ بالاختناقِ حينَ اقتربَ المخلوق منهُ وهو يهددُه بتلكَ الكلمات، شعورٌ بالكراهية ينتابهُ والمللُ يتسربُ إلى قلبهِ من هذهِ المهزلة، شيءٌ في عيونِ المحدقينَ فيهِ يجذبهُ لينضمَ اليهم، يغمضُ عينيهِ في خوفٍ وانزعاجْ يتخيلُ أباهُ وهو يقولُ له:

"قاوم يا حسن ... سننشئ المبادرة معاً"

المحيطونَ بهِ يرددونَ: "لن تقدر ... لن تقدر ......!!" والمخلوق بنبرة خشنة يقول بصوت مرتفع أكثر:

"حفل جوائز لمن ؟ للبائسين اليائسين... هاهاها".

يضحكُ التابعونَ خلفهُ ساخرين، وحتى الطفل ُيضحكُ مثلهم تماماً... لازال يغمضُ عينيهِ ، تتعالى أصواتهم وهم يرددونَ من جديدْ: "لن تقدر ... لن تقدر ..." فتح عينيهِ وقد شعر بهبةٍ شديدةٍ من الدفء، فصمت الجميع وأحسَ بحباتِ الترابِ على وجههِ ولاحظَ أنهُ حينَ يغمضُ عينيهَ يتحدثون ويصرخون...

"لا حينَ أتخيلَ؟" قال في نفسهِ كمن اكتشف اكتشافاً هائلاً، وتذكر ذلك الكابوس السابق، "أجل وجدتها" ثم أغمض عينيهِ مجدداً وراح يتخيلُ أنهُ ينفذ فكرة سالمْ، المسرح المكتظ بالحضور وهو يقف خلف المنصة، ولوحة كبيرة لأبيهِ مؤسس المبادرة وأسفلها كُتبَ بخطٍ عريض:

"للحياة حكاية، وللحكاية حياة"

علت الأصوات وهو يستمر في الحفل المهيب في خيالهِ والمخلوق يزعقُ والهباتُ الساخنة تتزايدُ،

الأشجارُ الباسقة تسقطْ، يفتحُ عينيهِ ليجد الجميع قد ابتعدوا فزعين، نهضَ وأخذ يركضُ مسرعاً،

والمخلوقُ يقفُ في مكانهُ قائلاً: "إلى أينَ ستذهبُ مني يا حسن؟"

غاصَ بينَ الأشجار، الأرضُ غير المستوية جعلت خطواتهُ أبطأ، راح يتحركُ نزولاً وصعوداً

وأصواتٌ الناسِ يصرخون خلفه، تدفعهُ الأصوات إلى الإسراعْ... الأشجار لا تنتهي، كادَ أن يتعثر أكثر

من مرة بالأغصانِ المتكسرة، السماء تغيبُ بها الشمسُ في الأفق، والليلُ يعلنُ عن قدومهُ

المباغت.

يركضُ ويركضُ... فجأة ينقطع الوعي، تنقطعُ الصورة، وتختفي الأصوات، لقد سقطَ في حفرة

سحيقة! نهضَ يحاولُ تحمل الألم، كانت عينانِ تطلانِ عليهِ، انتفض في جزع، "لا تخف أنا إسماعيل"

مد الشابُ يدهُ فصافحه حسنْ في شكٍ وتردد.

– أنا إسماعيل ألا تعرفني... من قصة (فقدان الكينونة) أحاولُ الهربَ من فترة من هذا الكابوس

لكنني لا أستطيع، قطعت شوطاً كبيراً وها أنا لا زلت أحاولُ.

– أجل أجل... لقد قرأتُ قصتك.

قال حسنْ متذكراً وهو يتحسسُ رأسهُ من الخلف، بينما عقّبَ الآخرْ باستياء:

– لن يتركنا وشأننا، سيموتُ إذا نجونا من شراكهِ... يتألمْ ويحترقُ.

– لقد وجدت طريقة لأتغلبَ عليهِ لكنني...

صمت حسن لحظة ثم أردف:

– ركضت لم أكمل... لا أدري ما الذي دفعني للركض هرباً؟

– أنا آخرُ من تبقى من الذينَ حاولوا النجاة ولا زلتُ أحاولُ أنْ لايتملّك مني... كلّ أتباعهِ كانوا معيّ لكنهم الآنَ مسيّرينَ كأنّهم عِميانٌ لا يبصرونْ!

نهضَ إسماعيلْ ما إن أنهى عبارتهُ ثمّ مد ذراعهُ لحسنْ قائلاً:

– لنْ اعودّ الى تلكَ الحياة، لابدّ أن نقاوم ...

فعلتْ كلماتهُ أفاعيلها في قلب حسن، فاتقدتْ حماستهُ ونهضَ مقاوماً آلامَ جسدهِ نَظَرَ إلى الأعلى كان الارتفاع يصلُ إلى ثلاثة أمتارٌ، الليلُ خيّم تماماً، لكنّ ضوءَ القمرْ لازالَ يبعثُ شعاعاً صنعَ رؤيةً باهتةْ، أصواتُ التابعينَ تقتربُ وضحكاتُ المخلوقِ كذلك، فكرَ حسنْ لبرهةٍ في حينِ تحسسُ إسماعيلُ الجدرانُ الترابية للحفرة...

– لن تساعدَنا هذهِ الهشاشة في التسلق...

قال إسماعيل وهو ينظرُ إلى رفيقهِ الشارد في الأعلى، ثم نظرَ إليهِ حسنْ وعيناه تلتمعانِ وقال: "وجدتها!"

جلسَ كلاهما وكلّ مغمضَ العينينْ متخيلاً أكثر المشاهدَ إيجابية في حياته، الأصواتِ تعلو: "لن تفلحا... لا تستحقُ الحياة العناء"، والمخلوقُ يصرخُ بنبرتهِ الخشنة: "الفشلُ نصيبكم... الفشلُ حليفكم ... الفشل".

هباتُ الأملِ الدافئة صارت تأتيهما من كل اتجاهِ، وأصواتُ التابعين قد بدأت تخفتْ... الأضواءُ تخترقُ الحفرةْ من أسفلهما ومن الأعلى كانَ القمرَ يزدادُ شعاعهُ سطوعاً كأنهُ قد تحول لشمسْ، صمتتْ

الأفواهْ وخفتتْ الأصواتُ تماماً، الضوءُ في كل مكانْ لا يرى أحدٌ منها سوى الآخر، ابتسما لبعضهما ولكن في لحظة برزَ المخلوق الذي هو أشبهُ بثورْ في الضوء وكانَ شعرهُ الأسودْ قد استحال أبيضاً كالشيّب، وعيناهُ حمراوانٍ كالدم ثم قالَ مخاطباً حسن وقد بدى على نبرتهِ الضعف هذهِ المرة:

- لن تستطيعَ يا حسنْ سأنتصرُ في النهاية، أنتَ جاهل لا تملكُ شيئاً فيما تفعل...

صمتَ حسن ثمَ قالَ وقد ازدادَ ثقةً وقوّة ظهرت في نبرةِ صوتهِ:

- لكنني أملكُ الخيالْ...

ثمّ صرخَ المخلوق صرخةَ ألمٍ وتقطعَ أمامهما أشلاءً وهما يضحكانِ بجنونْ.

استيقظَ حسنَ بهدوءٍ هذهِ المرة بابتسامةٌ تنمُ عنْ سعادة تغمرهُ وثقةً أنهُ سيقومُ بما هو مناسب، اعتدلَ متخذاً وضعيةَ الجلوسْ، نظرَ صوبَ النافذة حيثُ الشمسُ تطلُ عليهِ بكاملِ بريقها ورونقها، كانَ الأملْ يدفعهُ لأنْ ينهضْ ويقدم المزيد والمزيد... رددَ وهو ينظرُ إلى صورة أبيهِ فوق الحاسوب:

"أمتلكُ الخيالَ يا أبي، أمتلكُ الخيالُ!"

.

للقراءة أونلاين
اضغط هنا
الكتيب النقدي
اضغط هنا
لتصفح الكتيب النقدي

روابط مفيدة:

التقرير السنوي لمبادرة حكياتنا عن عام 2021
https://bit.ly/3N7wzbw

"حكياتنا" المجموعة القصصية الأولى الصادرة عن موسم 2021.
https://bit.ly/3Jw0sSd

الكتيبات النقدية الصادرة في موسم 2021.
https://bit.ly/3OKLGb4

الكتيبات النقدية الصادرة في موسم 2022 (يتحدث حالياً باستمرار).
https://bit.ly/3zfHIS9

إحصائيات موسم 2021.
https://bit.ly/3Q4rl1I

إحصائيات موسم 2022.
https://bit.ly/3cMuh4t

القائمة الطويلة لموسم 2021.
https://bit.ly/3zJnaCU

القائمة الطويلة لموسم 2022.
https://bit.ly/3QaNDyN

محتوى إنفوجرافيك.
https://bit.ly/3JkiVB6

نموذج عن بطاقات المشاركين في موسم 2021.
https://bit.ly/3QaNZ8B

البطاقات التعريفية بلجنة التقييم النهائي عن موسم 2022.
https://bit.ly/3BqlyiL

شهادات التقدير للمشاركين عن موسم 2022.
https://bit.ly/3vqwjOb

شهادات التقدير للجنة التقييم النهائي في موسم 2022.
https://bit.ly/3vulOrZ

أسئلة شائعة.
https://bit.ly/3zl0kLS

قالوا عنا.
https://bit.ly/3OHupiV

بطاقات المشاركين في موسم 2022.
https://bit.ly/3OMZC4a

شهادات التقدير عن موسم 2021.
https://bit.ly/3S9IWli

الكتيب التعريفي الخاص بنشاط "كملها مع حكياتنا":
https://bit.ly/3AqS3vf